مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان
سلسلة مبادرات فكرية
(٢٥)

الثقافة ليست بخير!

أحمد عبد المعطي حجازي

www.alkottob.com

الكتاب: **الثقافة ليست بخير**
المؤلف: أحمد عبد المعطي حجازي
الناشر: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان
٩ ش رستم، جاردن سيتي، القاهرة
ت: ٧٩٥١١١٢(٢٠٢+) فاكس: ٧٩٢١٩١٣(٢٠٢+)
العنوان البريدي: ص.ب:١١٧ مجلس الشعب، القاهرة
البريد الالكتروني: info@cihrs.org
الموقع الالكتروني : www.cihrs.org
الصف الالكتروني: هشام السيد
المراجعة اللغوية: سيد ضيف الله
الإخراج الفني: أيمن حسين

رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

نشر هذا الكتاب بمساعدة من المفوضية الأوروبية والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن الرأي الرسمي للمفوضية أو رأي مركز القاهرة

www.alkottob.com

فهرس

- تقديم ٥
- المراجعة مسألة حياة أو موت ٧
- آن لنا أن نسأل ١٢
- الثقافة تواجه غولين ١٨
- ليست الثقافة وحدها.. إنه الوطن كله ٢٤
- عمل المثقف، وعمل الموظف ٣١
- ضمير لا يكذب ولا ينافق ٣٧
- إنها مسئولية المثقفين والوزراء أيضا ٤٣
- حول علاقة الثقافة بالدولة ٥٠
- أكاذيب تتغذى بأكاذيب ٥٦
- ليست مظاهرة عابرة ٦٢
- الفرق شاسع بيننا وبينهم ٦٩
- الطغاة والغزاة ٧٦
- إنه مأزقنا جميعا ٨٢
- كلمة هادئة في اشتباك عنيف ٨٨
- من الكلمة إلى القنبلة ٩٠
- الكلمات فخاخ منصوبة ١٠١
- ليست أخطاء لغوية ١٠٧
- اللعب بالكلمات ١١٤
- ذو العقل يشقى ١٢٠
- الأستاذ: هيكل، وأزمة المثقفين (١) ١٢٧
- الأستاذ: هيكل، وأزمة المثقفين (٢) ١٣٣
- الأمة الحرة، والمثقف المستقل ١٤٠
- أولئك آبائي ! ١٤٦
- ليس دفاعا عن المثقفين ١٥٣
- مغول الداخل ومغول الخارج ١٦٠

www.alkottob.com

مركــز القاهــرة لدراسات حقــوق الإنسان هــو هيئة علمية وبحثيــة وفكرية تستهدف تعزيز حقوق الإنسان في العالم العربي، ويلتزم المركز في ذلك بكافة المواثيق والعهود والإعلانات العالمية لحقوق الإنسان. ويسعى المركز لتحقيق هذا الهدف عن طريق الأنشطة والأعمال البحثية والعلمية والفكرية، بما في ذلك البحوث التجريبية والأنشطة التعليمية.

يتبنى المركز لهذا الغرض برامج علمية وتعليمية، تشــمل القيام بالبحوث النظريــة والتطبيقية، وعقــد المؤتمرات والنــدوات والمناظــرات والحلقات الدراسية. ويقدم خدماته للدارسين في مجال حقوق الإنسان .

لا ينخرط المركز في أنشــطة سياسية ولا ينضــم لأية هيئة سياسية عربية أو دولية تؤثر على نزاهة أنشطته، ويتعاون مع الجميع من هذا المنطلق.

المدير النفيذي
مجدي النعيم

المستشار الأكاديمي
محمد السيد سعيد

مدير المركز
بهي الدين حسن

www.alkottob.com

تقديم

لا أستطيع أن أتصور حياة إنسانية صحية لا يراجعها صاحبها، سواء كانت هذه الحياة لفرد أو جماعة. فما دمنا نحيا فنحن نتغير. ما دمنا نتغير فكل شئ من حولنا يتغير بأيدينا، أو يتغير في عيوننا. وما دامت الشروط التي أملت علينا اختياراتنا في الماضي لم تعد قائمة، فقد فقدت هذه الاختيارات ما كانت تستند إليه، وأصبح من واجبنا أن نراجع كل شئ، الواقع المحيط بنا من ناحية، ووعينا نحن بهذا الواقع، وإدراكنا لعناصره المختلفة، الموروث والطارئ، والحقيقة والوهم، والمعلوم والمجهول.

لهذا كانت المراجعة عملا شاقا ثقيلا يؤديه الإنسان كارها متبرما، لأنه لا يكون فيه مجرد حكم محايد يسائل غيره، ويستمع لشهادة الظروف والأقدار، بل يسائل نفسه أولا، ويراجع اختياراته، ويقبل الحقائق ولو كانت مُرة، ويتخلى عن الأوهام ولو كانت مريحة ناعمة.

هذا لو أراد أن يحيا حياة لائقة به تكون صورة لوعيه، وتعبيرا عن خبرته، وتحقيقا لأحلامه وأمانيه.

www.alkottob.com

فـإذا تنازل عن هذه الشروط، أو وجد ثمنها أقسى مما يطيق رضى بمـا هو فيه، فلم يراجع نفسه، ولم يسائل غيره، ولم يعترف بخطأ، ولم يطالـب بحـق، ولم ينكر ما يستحق أن ينكـره، ولم يحلم بما يستحق أن يحلـم به، لم يفكر، ولم يتخيـل ولم يغامر، ولم يتحرر من شعور بالذنب أو التقصير، ولم يفرح بما اكتشفه ووصل إليه. بعبارة مختصرة، تنازل عـن كل شئ. ليس عن الشرط المادي للحياة الإنسانية فحسب، بل عن الشرط المعنوي الأخلاقي كذلـك. إنه يتنازل عن حقه، ورزقه، ووعيه، وحريته، ونبله، وكرامته.

حقـا إن ثمـن التنـازل عن الشرط الإنسـاني أقسى بكثـير من ثمن الالتزام به، لكن الشعور بهذه القسوة مشروط بوعي الإنسان أنه إنسان. فـإذا غاب هذا الوعي هان كل شئ وصدق على الذين غاب وعيهم قول المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام!

أحمد عبد المعطي حجازي

www.alkottob.com

المراجعة مسألة حياة أو موت

لا أظن أن الأسباب التي تجتمع علينا اليوم وتحثنا على مراجعة تاريخنا القريب ومراجعة أنفسنا قد اجتمعت علينا من قبل، فأصبحت هذه المراجعة حاجة حيوية ملحة، أو مسألة حياة أو موت، كما قلت جاداً في حديث سابق، قاصداً ما أقوله بمعناه الحرفي.

لقد خضنا في النصف الأخير من القرن العشرين تجربة بالغة العنف، مازال عنفها –وإن تجاهلناه كثيرا –ساكنا في أفئدتنا باديا في وجوهنا وفي حياتنا كلها التي قلبتها رأسا على عقب هذه التجربة العنيفة التي اصطلحنا على تسميتها بثورة يوليو، وقد مرت عليها الآن خمسون سنة رفعنا خلالها شعارات أبدلناها بشعارات أخرى مرات عدة، وأقمنا نظماً مكان نظم أخرى في السياسة، والإدارة، والاقتصاد، والثقافة، والاجتماع، ودخلنا في حروب متصلة خسرنا معظمها ضد الإسرائيليين والإنجليز، والفرنسيين ، والنظم العربية التقليدية والمحافظة، وبددنا في هذه التجربة المريرة ثرواتنا القومية، وخرجنا منها مثخنين بالجراح، مثقلين بالديون، مكبلين بالأغلال، أفلا تكون هذه التجربة العنيفة بمفردها سبباً كافياً لمراجعة النفس وحساب

www.alkottob.com

الأرباح والخسائر؟

لقد خسرنا دستور ١٩٢٣ الذي خطه آباؤنا وأجدادنا بكل ما كان يملأ أفئدتهم من تعطش جارف للحرية، وتوق للكرامة الإنسانية، وتلهف على اللحاق بالعصور الحديثة، وامتلاك أسرارها، واقتباس أنوارها، وقد خسرنا هذا الدستور، كما خسرنا البرلمان، وحرية الصحافة، والنهضة الأدبية والفنية والعلمية، وسعر الجنيه المصري، وارتفاع مستوى الأداء والخدمة في المدارس، والجامعات، المستشفيات، ودواوين الحكومة وسواها من المؤسسات العامة والخاصة، فماذا ربحنا إذن؟ وأهم من هذا السؤال: ماذا تعلمنا من هذه التجربة العنيفة؟

أعرف أن بعض الندوات عقدت، وبعض المذكرات نشرت وبعض الكتب ألفت، لكن المناخ العام الذي ينضح باللامبالاة، وعدم الشعور بالمسئولية، وإيثار السلامة، والتزام المسموح به حوّل المناسبة من وقفة للمراجعة إلى حفلة لتبادل التهنئة، وقراءة الخطب الركيكة، وترديد الشعارات القديمة. ولهذا لم نتعلم شيئاً، بل لقد انتشرت العدوى واستشرت، فانتقلنا من طغيان الفرد الذي كان يحكمنا باسم الثورة إلى طغيان "الجماعات" التي تزعم أنها ستحكمنا باسم **الله** !

والأعوام الخمسون التي مرت على تجربتنا "الثورية" مرت على التجارب المماثلة التي خاضها سوانا من العرب، والأفارقة، والآسيويين الذين قلدناهم وقلدونا، فانتهوا لمثل ما انتهينا إليه أو قريبا منه، مما يعطى المراجعة أبعادا متفاوتة تبدأ من البعد المحلي، وتتجاوزه إلى البعد الإقليمي، والبعد العالمي، ويوفر لها بالتالي مادة من التجارب المتنوعة المختلفة تساعد على رؤية الظواهر المشتركة، والإمساك بالقوانين الفاعلة في حركة العالم الثالث، تلك الحركة التي تتحقق ضمن ظروف العالم الثالث من ناحية، وتتقاطع مع حركة

www.alkottob.com

العالم ككل من ناحية أخرى، فتندمج فيها حينا، وتقترب منها أو تبتعد عنها حينا آخر. إننا بهذه النظرة الشاملة نعرف أنفسنا ونعرف العالم في وقت معا.

ولاشك أن حاجتنا لمراجعة تجربتنا بتفاصيلها الدقيقة وداخل حدودها المحلية حاجة حيوية، لكن هذه التجربة المصرية رغم خصوصيتها لم تكن معزولة عن تجارب الآخرين، بل كانت متصلة بها متوافقة مع بعضها، ومتعارضة مع بعضها الآخر، فنحن لا نستطيع أن نفصل نضالنا ضد الاستعمار الغربي عن نضال غيرنا من الشعوب التي ابتليت مثلنا به، ولا نستطيع أن نفهم صراعنا مع المشروع الصهيوني بعيدا عما شهدته أوروبا طوال النصف الأول من القرن العشرين، وإذا كانت الأسباب الداخلية لهزيمة الديمقراطية في بلادنا راجحة، فالأسباب الخارجية معروفة أيضاً وفاعلة، وإذا كان التطرف الديني عندنا قد تغذى على تراث قديم، ووجد التشجيع والعون من بعض النظم المجاورة، فقد وجدهما أيضاً من بعض الحكومات الغربية!

لقد بدأت العولمة منذ زمن طويل، ولم يعد باستطاعة أمة أن تعتزل العالم، ولم يعد التاريخ الإنساني دوائر مغلقة أو تيارات مستقلة منفصلة، وإنما أصبح حركة واحدة أو تيارات متقاطعة متصارعة داخل تيار واحد يصنعه البشر جميعاً، ويتأثرون به جميعا، فمن الطبيعي أن يكون الاستعمار الغربي موجة واحدة أو موجات متعاقبة، ومن الطبيعي أن تكون ثورات المستعمرات ثورة واحدة أو ثورات متصلة متضامنة، ومن الطبيعي أن يتكرر ما حدث عندنا في بلاد أخرى بصورة أو أخرى.

واتصال التجارب البشرية أو تفاعلها لا يتحقق في حالة التوافق

www.alkottob.com

والتفاهم وحدها، بل يتحقق كذلك في حالة التناقض والاختلاف، لقد تأثر الغرب تأثرا عميقا بالثورة البلشفية التي كانت تبدو وكأنها قطيعة مع النظم الغربية، ثم فوجئنا في الثمانينيات بالزلزال الذي أتى على الاتحاد السوفيتي من أساسه، فعلمنا أن القطيعة ليست إلا وهما لا يمكن أن يتحقق، وأن مجتمعات شرق أوربا لن تلبث حتى تخلع عنها نظامها الشمولي الذي استعارته من الروس، وتتحول إلى النظام الليبرالي الذي ستستعيره من الولايات المتحدة أو أوربا الغربية.

التجارب البشرية تتواصل، وتتفاعل، وتبدأ بداية مشتركة، وتنتهي نهاية مشتركة، وهذه حقيقة منهجية لابد أن نتمثلها ونحن نراجع تجربتنا الماضية، ودرس لا بد أن نتعلمه ونكف عن محاولة الانغلاق في ماضينا الذي لم يكن هو الآخر مغلقا، بل كان حافلا بـ "الفاتحين" من كل جنس ولون!

ونحن لسنا وحدنا الذين بدأنا تجربتنا "الثورية" قبل خمسين سنة، لقد تكررت هذه البداية في عدة أقطار عربية، وفي الصين والهند، وإندونيسيا، وغانا، وغينيا، وكينيا، والسنغال، ويوجوسلافيا، واليونان، وأيرلندا، وعدة أقطار في أمريكا اللاتينية، وكما بدأنا في أوقات متقاربة، انتهينا في أوقات متقاربة، وفي الوقت الذي بدأ فيه العالم الثالث تجاربه "الثورية"، أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، بدأت أوروبا الشرقية، تجاربها "الاشتراكية"، وقام المعسكر الشرقي، وفي الوقت الذي نفض فيه العالم الثالث يده من تجاربه "الثورية" سقطت النظم الاشتراكية في شرق أوروبا، وانهار المعسكر كله، ثم مالت شمس القرن العشرين للمغيب، ثم اختفت ليبدأ قرن جديد، ونبدأ معه تجربة جديدة.

فهل اجتمعت من قبل هذه الأسباب التي تدعونا لمراجعة تاريخنا

www.alkottob.com

ومراجعة أنفسنا كما اجتمعت اليوم؟ وهل كانت هذه المراجعة مسألة حيوية ملحة كما هي الآن؟

ولقد بدأنا هذه المراجعة بالفعل. لكننا حصرناها في العودة إلى الاقتصاد الحر. ولست في حاجة للتذكير بأن الحرية لا تتحقق بالاقتصاد وحده، أو كما قال السيد المسيح في رده على إبليس الذي تحداه أن يجعل الحجر خبزا فأجابه : "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"، وإنما الحرية تفكير وتنظيم، ونقد وتقييم، وإعلان للرأي وتداول للسلطة.

المراجعة نهضة شاملة، فهل ننهض بها نحن أم نتلكأ حتى تدهمنا أحداث العالم وتطوراته، وينفرد الآخرون بالقول والفعل دوننا، ويفرضون علينا ما يرونه، وما يتفق مع منطقهم ومصالحهم؟

www.alkottob.com

آن لنا أن نسأل

كنت أتوقع بالطبع أن تثير الكلمة التي قلتها في افتتاح المهرجان الثقافي الذي نظمته هيئة الكتاب ودار الكتب خلال شهر رمضان ما أثارته من ردود فعل متباينة، فقد صارحت الحاضرين وهم جمهور من الأدباء والفنانين والنقاد والصحفيين والمسئولين عن المؤسسات الثقافية يتقدمهم الأستاذ فاروق حسني وزير الثقافة، بأن الثقافة المصرية ليست بخير، وأن الإبداع المصري يتراجع وينحسر في كل المجالات، وأن إنتاجنا الثقافي في النصف الأخير من القرن المنصرم لا يرقى إلى مثيله في النصف الأول، وأن الأجيال الشابة من الأدباء والفنانين والمفكرين المصريين لم تبلغ ما بلغته الأجيال التي سبقتها، إلا استثناءات نادرة.

والتراجع الذي أتحدث عنه ليس مجرد انخفاض في القيمة الفنية لبعض الأعمال، وإنما هو إلى جانب ذلك غياب للدور الذي كانت تنهض به الثقافة في حياتنا العامة، وكان ينهض به المثقفون.

في أول القرن كان كتاب لقاسم أمين يغيّر المجتمع وينقله من عصر إلى عصر آخر، وفي عشرينيات القرن كان العقاد يجد نفسه

www.alkottob.com

قادراً على أن يحطم أكبر رأس في البلاد –ويعني الملك فؤاد! – إذا اعتدى على الدستور، وفي الأربعينيات كان إحسان عبد القدوس يحرك النائب العام للتحقيق مع حاشية الملك في قضية الأسلحة الفاسدة.

ومن المؤكد أن حياتنا الثقافية في العقود الخمسة الأخيرة لم تخل من مواهب حقيقية وأعمال جدية، ولكن أفضل ما ظهر من هذه المواهب والأعمال في النصف الأخير من القرن كان استمراراً مدينا بالكثير لما تحقق في النصف الأول، ثم إنه لم يكتمل، ولم ينجب أجيالاً جديدة تواصل الإنتاج وترفع مستواه، والنتيجة هي هذا المستوى الهابط الذي وصل إليه إنتاجنا الثقافي في معظم الميادين.

وكان الدكتور سمير سرحان الذي أدار الحديث في تلك الأمسية الافتتاحية قد فاجأني –سامحه الله! – حين طلب مني أن أبدأ الحوار مع السيد الوزير بكلمة لم أكن قد تهيأت لها، لأني لم أكن أعتقد أن حوارا سيدور في تلك الأمسية، فضلاً عن أن أشارك في هذا الحوار أو أبدؤه، وهكذا وجدت نفسي أنهض لأتحدث فيما لا أدري من حديث بدأته بتحية الحاضرين، وتذكيرهم بما تعنيه الثقافة لنا، وما تمثله في حياتنا المعنوية وحياتنا العملية، حتى ثابت لي بديهتي فوجدتني أنطق بما كان يجمجم في صدري، دون أن تسنح الفرصة لمصارحة الناس به. لقد كان صعبا أن أصارح نفسي، فكيف أعلنه على الملأ؟ وأي ملأ؟ المشتغلون بإنتاج الثقافة وإدارة مؤسساتها، وهم فئة من الناس معجبة بنفسها، يدللها الجمهور ويمطرها بالثناء والحمد أكثر مما يوقفها أمامه للنقد والمحاسبة، وخصوصاً في أمسية كهذه الأمسية المفترجة –لست متأكداً من أن هذه الصيغة الشعبية فصيحة!– التي لم يكن منتظرا إلا أن تكون احتفالا بشهر رمضان يصح فيه تبادل المجاملات التقليدية، أو الاستماع لأغنية أو حكاية، أما أن تتحول إلى

www.alkottob.com

برلمان ثقافي أو ندوة نقدية فهذا ما لم يكن منتظراً، وربما عده بعض الحاضرين تجاوزاً أو سوء تقدير. وربما ظن البعض أني أهاجم وزارة الثقافة، أو أهاجم فاروق حسني بالذات.. فاجتهد في أن يبرئ النشاط الثقافي من أي عيب أو تقصير، ويعدد ما اعتقد أني تجاهلته وأهملته من أعمال وإنجازات.. لكن بقية الردود –والحق يقال– كانت عاقلة هادئة لفتت نظري إلى عدد من المسائل المهمة التي لابد أن يستدعيها هذا الحديث.

أستاذة الاجتماع الدكتورة سامية الساعاتي رأت أن المقارنة بين ما كنا ننتجه في النصف الأول من القرن وما أنتجناه في النصف الآخر ربما قامت على غير أساس، لأن الإنتاج في كل من العهدين كان تعبيراً عن واقع مختلف، وكان نتيجة ظروف كانت في النصف الأول غيرها في النصف الأخير.. فإذا كان من حقنا أن ننظر في علاقة شوقي بعصره مثلا، أو علاقة صلاح عبد الصبور بعصره، فليس من حقنا أن نقارن أمير الشعراء بصلاح، أو نقارن يوسف إدريس بتوفيق الحكيم.

أما الناقد الدكتور صلاح فضل رئيس دار الكتب –وقتئذ– فقد رأي أن الزمن الفاصل بيننا وبين الإنتاج الذي نتحدث عنه شرط أساسي في التقويم الصحيح.. فنحن نحتاج إلى مسافة كافية من البعد لنتمكن من اختبار هذا الإنتاج والإحاطة به وقياس قدرته على تخطي الزمن والتأثير في الجمهور الذي يتلقاه .. فإذا كنت أستطيع الآن أن أكون عادلا في الحكم على عمل الأجيال السابقة التي أصبحت تراثاً قومياً. فأنا في رأي الدكتور صلاح أظلم الأجيال المعاصرة لي لأنني أراها عن قرب وأخالطها، بل إنني أظلم نفسي لأني لا أستطيع أن أتجرد منها، لأراها من بعد رؤية كاملة، وأحكم عليها حكما أطمئن ويطمئن الناس

www.alkottob.com

له. شرط وجيه كالشرط القانوني الذي يجرح غيابه الحكم إذا صدر عن قاض تصله بأحد المتقاضين صلة يخشى أن تؤثر في سلامة تقديره للقضية المعروضة أمامه، فعليه في هذه الحالة أن يتنحى ليحل محله قاض آخر.

وكانت الجامعات في الماضي وإلى عقود قليلة خلت، تأبى على طلاب الدراسات العليا أن يديروا أبحاثهم حول المعاصرين الأحياء من الكتاب والشعراء والمفكرين، لأن عمل المعاصر لم يكتمل بعد مادام قادرا على أن يضيف له، ومادام من حقه أن يعيد النظر فيه فالأجيال القادمة هي صاحبة الحق في دراسته، أما نحن فلا نملك إلا دراسة أعمال السابقين.

ثم طلب الروائي إبراهيم عبد المجيد الكلمة ليلفت النظر إلى اعتبار آخر يناقض هذا الاعتبار.. لقد رآني الدكتور صلاح فضل واحدا من أبناء الجيل الذي أتصدى لتقويم عمله. أما إبراهيم عبد المجيد فقد وجد أني فيما قلته عن الثقافة المصرية في النصف الأخير من القرن العشرين لا أتحدث عن الجيل الذي أنتمي إليه فحسب ، وهو الذي ظهر في الخمسينيات والستينيات، وإنما أتحدث أيضاً عن الأجيال التالية التي ظهرت في العقود الثلاثة الأخيرة، وهي أجيال جديدة بالنسبة لي، وأنا بالنسبة لها جيل قديم له قضاياه، وتجربته الخاصة، ومنطلقاته النظرية وخبراته الفنية التي لا تساعد على تقويم الأجيال الجديدة، لأن كل جيل يجعل خبرته الخاصة مقياسا يقيس به عمل الجيل الذي يليه، وربما جنحت به هذه الخبرة الخاصة إلى الطعن في تجارب غيره وتجاهل إنجازاته، وهو ما فعلته أنا في نظر إبراهيم عبد المجيد، حين لم أشر في حديثي إلى ما حققه الروائيون المصريون الجدد من نجاح تمثل في ترجمة عدد من أعمالهم إلى اللغات الأجنبية، فضلاً عن

www.alkottob.com

موقفي السلبي من قصيدة النثر، وهو موقف لا يرى له إبراهيم عبد المجيد إلا تفسيراً واحداً وهو صراع الأجيال!.

وأخيرا نهض الدكتور عبد المنعم سعيد ليتحدث، مطلوبا لا طالبا، فتمنى لو أننا قسنا نشاطنا الثقافي الراهن بما يطرحه علينا الوقت الراهن من أسئلة، وما يطالبنا به من إجابات تتصل بتحديد الهوية، واستكمال النهضة، وتحقيق التنمية، وحوار الحضارات والدخول في عصر المعلومات وثورة الاتصالات.. إلى آخر هذه الأسئلة المطروحة علينا وعلى العالم كله.

لقد رأي الدكتور عبد المنعم سعيد إننا نحن المصريين نعاني اغترابا مزدوجا، فنحن مغتربون في الماضي بقدر ما نحن مغتربون في المستقبل.. الماضي العربي الذي نقيس حاضرنا عليه ليس ماضينا نحن بالذات، وإنما هو ماض إمبراطوري، تراث مشترك لا نملك فيه إلا ما يملكه الآخرون، ومعنى هذا أنه لا يمثلنا إلا تمثيلاً تقريبيا يشوبه الغموض وعدم التحديد، فهو لذلك غريب عنا، ونحن فيه مغتربون.

وكذلك نحن في الحاضر والمستقبل.. إن اغترابنا فيهما أشد وطأة، لأننا نقف على أبوابهما منذ قرنين، ولا نملك القدرة على الدخول.. وهذا وضع يتحمل مسئوليته المثقفون المصريون.

هكذا كانت الردود أو معظمها مفاجأة غير متوقعة، لأنها تميزت بقدر كبير من التوازن والمنطق، وسلطت الضوء على جوانب في المسألة لا يجب إغفالها، وكبحت جماح الذين أرادوا أن يستثمروا كلمتي في قضاء حاجتهم، وحولت الأمسية إلى لقاء حي مثمر رأيت أن أعود به إليكم بعد الراحة الإجبارية التي تعودنا أن نتمتع بها في شهر رمضان من كل عام.

أعود إلى هذه المسألة التي أثرتها في كلمة ألقيتها عفو الخاطر،

www.alkottob.com

لأمتحن صحتها بالكتابة المتأنية التي أستطيع أن أراجع فيها نفسي، وأتثبت من معلوماتي، وأناقش وجهات النظر الأخرى، وأشرك أصحابها وأشرككم معنا في هذه المناقشة.

وأنا على يقين من أن ما يقلقني من أحوال الثقافة المصرية يقلق غيري، وأن ما صارحت به الحاضرين في تلك الأمسية التي مضى عليها الآن ما يقرب من شهر، حديث يتردد بصور مختلفة في أوساط ومناسبات كثيرة، فبدلا من أن يظل ظنونا وادعاءات نتحرج من التصريح بها، علينا أن نعلنها على الملأ ونطرحها للمناقشة، لنعرف ما فيها من حق واقع وما فيها من ادعاء لا يقوم على أساس.

ونحن نرى أننا نسير في نشاطنا الثقافي على غير هدى، ونخبط فيه خبط عشواء، لأن المبدع لا يرى إلا بعيون الناقد، والناقد غائب أو معطل بطريقة أو بأخرى، فنحن نقرأ في الصحف والمجلات أخباراً كثيرة تتحدث عن خطط، ومشروعات، ومهرجانات، وبرامج ولا نقرأ إلا القليل عن القيمة أو الإضافة التي تحققت بالفعل على يد هؤلاء الذين كتبوا ورسموا، وخططوا، ونفذوا، لأن الغالب فيما ينشر عن هذا النشاط أن يكون دعاية أو مجاملة.. ونادراً ما يكون تقريراً موضوعياً أو تحليلاً أو تقويماً من قلم نطمئن لعلمه وموضوعيته.

وقد آن لنا أن نسأل عن ثقافتنا!!

www.alkottob.com

الثقافة تواجه غولين!

حين أقول إن الثقافة المصرية معتلة، وأن الإبداع المصري يتراجع في كل المجالات وينحسر، لا أعني أن كل شيء قد انتهي، أو أن النشاط الثقافي كله قد توقف، وإنما أعني ما تعنيه هذه العبارات لا أكثر منه ولا أقل. ولقد حاولت دائما، وفيما كتبته حول هذا الموضوع بالذات إن ابتعد عن التعميم والإطلاق، وأميز بين النزلة العارضة والمرض المتفاقم، بين المثقف والحركة الثقافية، بين نشاط الأفراد ونشاط المؤسسات. من المؤكد أن لدينا أدباء وفنانين ومفكرين، لكن لا توجد لدينا الآن حركة أدبية أو فنية. الشاعر أو القصاص، أو الرسام يستطيع أن يظهر وأن يعمل وينتج في مختلف الأحوال والظروف، لان وجوده يعتمد قبل كل شيء على موهبة يملكها ولا يمنحه أحد إياها. صحيح أن هذه الموهبة تتفتح وتنضج في ظروف، وتذبل وتضمر في ظروف أخرى، لكنها تستطيع أن توجد في كل حال. تستطيع أن تجد تراثا تتغذى به وترجع إليه كما يحدث أحيانا حين نفاجأ بشاعر أو كاتب لم تكن الظروف تسمح لنا بتوقع ظهوره.. لكن وجود شاعر أو عدة شعراء، روائي

www.alkottob.com

أو عـدة روائيـين، ليـس دليـلا علـي وجـود حركـة شعريـة أو روائية. الحركة الأدبية أو الفنية تفترض وجود أطراف متعددة تنتظم في كيان مشـترك، وتتحرك في وسط معين، وإذن فلابـد من منطق أو عقل تعمل بـه هذه الحركة، ومـن غاية تتجه إليها، ومـن أدوات تستعين بها على مواصلة العمل، والتقـدم إلى الأمام، والتغلب على العقبات حتى تحقق ما تريد.

لا يمكن أن نتصور حركة أدبية دون أسس تشدها إلى الواقع، ودون منطلقـات ودوافـع فنية، وحيويـة تفسـر ظهورها، وتحـدد وظائفها، ودون أهداف تسعى لبلوغهـا، ودون ثقافة متجددة تتغذى بها، ودون نقـاد يؤازرونهـا ويعارضونهـا، ودون مجلات، ودور نشر تتصل عن طريقها بالجمهور.

وهـل يمكـن أن تكون لدينا هـذه الحركة ونحن نفقد مـا نملكه من المجلات ودور النشر بدلا من أن ندعمها ونضيف إليها؟

وقبـل خمسين سنة من اليوم حين لم يكـن عددنا يزيد على ثمانية عشـر مليونا، وحين لم تكن في مصر وزارة ثقافة، ولا هيئة كتاب، ولا دور صحـف قوميـة، قبـل نصف قرن كنـا نملك ما يقـرب من عشرين مجلـة أدبيـة منهـا مجلـة لفن الشعـر، وخمس مجـلات أو ست لفنون القصـة، كانـت صفحاتها مفتوحة لكل الكتَّـاب، وبوسعنا أن نذكر من هذه المجلات: الرسالة والثقافة، والرواية، والكاتب المصري والكتاب، ومجلتي، والمجلة الجديدة، والفجر الجديد، والشاعر، والروايات الجديدة، والقصة، والعشرون قصة، وقصص الشهر، والنديم القصصي، وروايات الأسبوع، والمهرجان.. إلى آخره.

واليـوم، مـاذا بقى لدينـا من هذه المنابـر؟ لا شـيء.. أما المجلات التـي كانـت تصدرها هيئـة الكتاب فقـد احتجب معظمهـا واحدة بعد

www.alkottob.com

أخرى، والمجلات الثلاث الباقية تتعثر، وتفقد قراءها، وكتابها، لأنها لا تصدر في مواعيدها، ولا تتمكن من أداء رسالتها! ولا شك في أن وزارة الثقافة تحس بهذا النقص، وتحاول أن تسده، لكن مصر الآن خالية من مجلة أدبية مسموعة الصوت، ولا وجود الآن لحركة أدبية، لدينا بلا شك أسماء، ومواهب، لكنها تعمل في ظروف غير مواتية، فكأنها صرخات في واد أو نفخات في رماد. وشتان بين ما نحن فيه الآن وبين الحركات الأدبية والفنية كما عرفناها من قبل.

خذ مثلا حركة تجديد الشعر التي انطلقت في الأربعينيات والخمسينيات والستينيات، هذه حركة بالفعل، لأن الذين انتظموا فيها من الشعراء المجددين كانت لهم عقيدتهم النظرية والجمالية، وكانت لهم غاياتهم وأدواتهم ومنابرهم وجمهورهم وخصومهم، وكانوا يتحركون بالفعل ويتقدمون، فينشرون أشعارهم ويوضحون أفكارهم، ويوسعون دائرة الأنصار، ويتغلبون على الخصوم.

والنجاح الذي أشرت إليه هنا ليس شرطا من الشروط التي تستحق بها الحركة أن تسمى حركة، ولكنه دليل على وجود الحاجة إليها وعلى استجابة الواقع لها.. فالفرق عظيم بين التقليد المصطنع أو التقليعة المجانية، وبين التطور الطبيعي الذي لابد منه في كل نشاط أصيل حي.

وهناك مثل آخر من تاريخ المسرح المصري، فرقة رمسيس كانت وجها من وجوه حركة قومية ونهضة شاملة تحققت في السياسة، والثقافة، والمجتمع. فقد ظهرت في السنة التي نال فيها المصريون دستورهم المجيد، دستور١٩٢٣ وحملت اسم رمسيس تعبيرا عن ميلاد جديد لمصر يتصل فيه حاضرها المأمول بماضيها العظيم، والتزمت

www.alkottob.com

مستـوي فنيا وفقت فيه بين مطالب المسرح ومطالب الجمهور. وكانت تقدم مسرحية جديدة كل أسبوع، وتفرض على نفسها وعلى المشاهدين السلـوك الذي تلتزم به المسارح العريقة. وما يقال عن مسرح رمسيس في العشرينيات يقال عن الفرقة القومية في الثلاثينيات، وعن المسرح الحر في الخمسينيات، وعـن حركة تمصير المسرح في الستينيات، تلك الحركة التي كانت وجها من وجوه الدعوة للتمصير والتأميم والتعريب في كل شيء. تمصير البنوك، وتأميم المصانع، وتعريب الاشتراكية!

وقـد بـدأ يوسف إدريس هـذه الحركة حين دعـا إلى مسرح مصري جديـد يتحرر من المسرح الأوروبي، ويستلهم فن السامر الريفي وسواه مـن فنون الفرجـة والتشخيص الموجودة في الـتراث الشعبي، وبوحي مـن هذه الفكرة كتب مسرحيته البديعـة الفرافير. وأثنى توفيق الحكيم علـى يوسف إدريس بما قدمه في كتابه "قالبنا المسرحي" وفي بعض مسرحياتـه المستلهمة من التراث الشعبي مثـل "يا طالع الشجرة"، ثم يظهر محمود دياب ليستفيد من هذه الدعوات المتجاوبة في مسرحيته "ليـالي الحصاد" ويتلقف النقـاد الفكرة فيناقشونها ويضيفون إليها كمـا فعـل علي الراعـي في كتابـه "الكوميديـا المرتجلـة"، والفنانون يجسـدون أحـلام المؤلفـين والنقـاد، والجمهـور يتابـع، والحركـة المسرحيـة تمد جذورها في التربة المحليـة، وتغتني بالتراث المصري والـتراث العالمـي معـا، وتمضـي قدمـا إلى الأمـام، فماذا نجـد الآن؟ نجـد عملا جديرا بالإشادة هو مهرجان المسـرح التجريبي الذي قصد به أن يكون نافذة سنوية نطل منها علي أحدث التجارب المسرحية في أركان العـالم الأربعـة، وأن يكون بالتالي فرصـة للاحتكاك والتفاعل تستفز المسرح المصري التقليدي، وتدفعه لاستعادة مكانته واستعادة جمهـوره، والمهرجان التجريبي لا يوفر لنا فرصـة المشاهدة فحسب،

www.alkottob.com

بـل يوفر لنـا فرصة القراءة أيضا، فينقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربيـة مكتبـة صغيرة في فـن المسـرح أصبحت الآن مكتبـة كبيرة. لكننـا مـع اعترافنـا بقيمة هـذه الجهـود لا نرى أنهـا بلغـت غايتها، وهـي إثـارة المسـرح المصـري وإيقاظـه، ونقـل الـدم وتزويـده بدم جديـد يكفـل لـه أن ينهـض ويستعيـد قدرتـه علـى الحيـاة والنشاط. لدينـا بـلا شك تجـارب في المسـرح، ولدينـا فنانـون يجربـون، لكـن ليس لدينـا حركـة، ولا اتجاهـات تنمـو وتتطـور وتكتمـل ملامحهـا. هنـاك صيحـات تعلـو فجـأة وتختفـي فجـأة كأنهـا بالونـات أو فقاعـات، والمسـرح المصـري يتراجـع يومـا بعـد يـوم. وما يقال عن الشعر والمسرح يقال عن الفنون التشكيلية والسينما، لدينا طبعـا مصورون ونحاتون، لكن ليس لدينا حركة فنية كالتي صنعتها الجماعـة السوريالية في الأربعينيات، أو جماعة الفن المعاصر بعدها. ولقـد وقعـت الحركـة التشكيلية بين شقـي الرحى: حركة تحـريم الفن وتكفـير الفنانين التي فرضـت النقاب على طالبات يدرسن فن النحت، أو فرضـت على فن النحت طالبات منقبـات، والسيطرة الحكومية التي فقدت فيها الحركة التشكيلية استقلالها، وتحولت إلى أصداء ووظائف. ولدينا كتّـاب سيناريو، ونجـوم سينما، ومخرجـون، ومصورون، لكن ليس لدينـا حركـة سينمائيـة كالتي بشرت بهـا أفلام مثـل العزيمة، والقاهـرة الجديـدة، وبدايـة ونهايـة وبـاب الحديـد والأرض لكمـال سليـم، وصلاح أبـو سيف، ويوسف شاهين، أو التـي تمثلت في جماعة السينمـا الجديـدة التـي ظهرت عقب هزيمـة١٩٦٧، ودعـت إلى سينما واقعيـة، محلية الموضـوع، عالمية التكنيـك، تتعمق حركـة المجتمع، وتصـور علاقاتـه الجديدة، وتكشف عـن معنى حياة الفـرد وسط هذه العلاقـات، وتمتص خبرات السينما الجديدة في العالم كله، وقد تحققت

www.alkottob.com

هـذه الأفـكار في بعضـ الأفـلام التـي ظهـرت في أوائـل السبعينيات مثـل أغنية علـى الممر لعلي عبـد الخالق، والعصفـور ليوسف شاهين. والأمـر لا يقف عند هذا الحد والمشكلـة لا تتمثل فقط في غياب الحركة الإيجابيـة التـي ينتظـم فيها النشـاط الثقـافي، ويعي نفسـه، ويدرك غايتـه، ويحدد مكانه بالنسبـة للواقع، والـتراث، والسلطة، والجمهور، وإنمـا تتمثل المشكلـة في حركة مضـادة للثقافة والإبـداع تستند إلى قوتـين اثنتـين ردة رجعية شاملة ترفع راية الديـن من ناحية، وطبقة جديـدة سوقية من ناحية أخرى، والصلـة بينهما وثيقة جدا. لكننا مع هذا لا ننكر الجهود التي تبذل لمقاومة هذين الغولين!

www.alkottob.com

ليست الثقافة وحدها..إنه الوطن كله!

تمنيت لو أننا تجردنا بعض الوقت من مصالحنا الخاصة وروابطنا الضيقة، ومناصبنا، ووظائفنا، ونظرنا إلى وضعنا الثقافي الراهن كما يجب أن تنظر الجماعة الوطنية لشرط جوهري من الشروط التي يتحقق بها وجودها. فإن كان هذا الشرط قد أصابه الوهن فقد أصبح وجودها مهددا من أساسه. وعليها في هذه الحالة أن تقوم لهذا الخطر قومة رجل واحد، وأن تدافع عن وجودها كما ينبغي عليها أن تدافع عنه، وإلا تعرضت للهلاك!. وليس هناك من يجادل في أن وجودنا في الماضي والحاضر إنما كان بفضل الثقافة.. وهو قول يصح على أي جماعة بشرية. فالبشر لا يخرجون من التوحش إلى التحضر إلا بالثقافة التي توفر لهم من الأدوات والحيل والأفكار ما يلبي حاجاتهم أكثر مما تلبيها غريزة الوحش وقانون الغابة.. والبشر لا يخرجون من انتمائهم الضيق للعائلة والعشيرة والقبيلة ليصبحوا شعبا أو أمة إلا بفضل الثقافة التي تمنحهم لغة، وشعورا بالتضامن، ومثلا عليا، وأهدافا، وقوانين تنظم وجودهم المشترك.. فإذا كان هذا صحيحا بالنسبة لأي شعب،

www.alkottob.com

فهو أكثر صحة بالنسبة للمصريين الذين سبقوا غيرهم إلى الثقافة، فهم منسوبون إليها أكثر من نسبتهم لأي شرط آخر من شروط الوجود. بل الثقافة هي ثروتنا القومية الأولى، أو هي الأكسير الذي نمزج به بين مختلف العناصر والمواد، ونحيي به الأرض بعد موتها، فمصر ليست هبة النيل وحده، كما قال هيرودوت، لأنها ليست مجرد أرض، وإنما هي أرض وبشر، أي أرض وثقافة. وقد تحولت هاتان الكلمتان إلى كلمة واحدة هي مصر.. فإذا تراجع الإنتاج الثقافي في مصر، أو ضعفت طاقة المصريين على الخلق والإبداع كما هي حالنا اليوم، فليست الثقافة وحدها في خطر، وإنما الوطن كله في خطر!.

وليس هذا مجرد ادعاء أو انطباع.. إنه حقيقة واقعة ينطق بها هذا الصمت، وهذا السكون، وهذا الفراغ الذي نلمسه ونحسه في كل مجال.. في الأدب، والفن، والفكر، والعلم جميعا. نحن لا نتحدث الآن إلا عن نجيب محفوظ.. لكن نجيب محفوظ الجدير بكل حفاوة وتكريم، يعيش الآن في آخر القرن الأول من عمره المديد.. وقد ألف أعماله الكبرى قبل نصف قرن.. صحيح أنه واصل الإبداع حتى وقت قريب، لكن وجوده دليل على نشاطه المعجز، وليس دليلا على نشاطنا نحن.

ومن المؤكد أن لدينا عددا من نجوم الرواية والقصة، لكن معظم هؤلاء تجاوز الستين كيوسف الشاروني، وإدوار الخراط، وسليمان فياض، وبهاء طاهر، وصنع الله إبراهيم، وإبراهيم أصلان، أو هو في طريقه إلى تجاوزها كجمال الغيطاني، ومحمد البساطي، وأحمد الشيخ. وما يقال عن القصة والرواية يقال بالأحرى عن الشعر الذي لم يظهر فيه خلال العقود الأربعة الماضية إلا قلة من الأسماء تتقدم في رياح غير مواتية، وتتعرض لنداءات مضللة، فلا يصل صوتها للامة

www.alkottob.com

التي تصيخ السمع لشعرائها، ولا تسمع منهم إلا غمغمات وهمهمات. ولقد تراجع النقد من حيث هو فن، ومن حيث هو دور.. نقدنا الآن أو معظمه مجاملات، أو ترجمات ومحاضرات.. أما المتابعات الجادة والتفسيرات والتخريجات الحاذقة، والتقويمات العادلة المبررة فقد أصبحت مادة نادرة، وربما لم تعد مطلوبة، وربما صارت مرفوضة منبوذة لا سعر لها ولا سوق!

وليست حال الغناء، والمسرح، والسينما، والفنون التشكيلية أفضل من حال الأدب والنقد. بعد النهضة التي بلغت ذروتها في سيد درويش، وداود حسني، والقصبجي، وزكريا أحمد، والسنباطي، ومحمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وأسمهان، وليلى مراد، وفريد الأطرش، وبيرم التونسي، وأحمد عبد المجيد، وحسين السيد، وعشرات آخرين من الملحنين والمطربين وكتاب الأغنية، بعد هذه النهضة العارمة لم يعد عندنا غناء.. هكذا فجأة توقف هذا النهر المتدفق، وانقطع تياره، وأصبحنا مضطرين لاستيراد المطربين والملحنين والعازفين، وحتى كتاب الكلمات.

وليس لأحد أن يشبه ما يحدث اليوم بما كان يحدث من قبل، حين كانت مصر تستضيف فريد الأطرش وأسمهان، ونور الهدي، وصباح، وفايزة أحمد، وعليا، وغيرهم من أصحاب الأصوات الجميلة، فضلا عن الملحنين من أمثال اللبناني فريد غصن، وكتاب الأغاني من أمثال الفلسطيني إبراهيم الدباغ. هؤلاء جاءوا إلى مصر لتتفتح فيها مواهبهم، وليبحثوا لهم عن مكان بين نجومها الكبار. أما الآن فالوضع مختلف جدا، فكل الأماكن خالية، ومن السهل على أية موهبة صغيرة أن تخب في ثياب النجوم الواسعة. والأغنية المصرية فقدت تقاليدها، وفقدت حقها في الصدارة حتى في مصر.. والملحنون

www.alkottob.com

المصريون يدبكون، والمغنيات المصريات يقلدن فيروز، والكلمات هجين من مختلف اللهجات. وليس هذا تعبيرا عن عروبة أو عن وحدة، بل هو تعبير عن فوضى وانفراط. والوحدة تغتني حقا بالتنوع، لكنها لا تقوم بغير مركز أو نواة.

والمسرح المصري الذي استطاع في الستينيات أن يؤلف بين الفن الرفيع والجمهور الحاشد فقد الاثنين معا في العقود الثلاثة الأخيرة التي شهدت رحيل توفيق الحكيم، ونعمان عاشور، ويوسف إدريس، وسعد وهبة، وصلاح عبد الصبور، وعبد الرحمن الشرقاوي، ويوسف وهبي، وزكي طليمات، وحسين رياض، وحسن البارودي، وشفيق نور الدين، وتوفيق الدقن، وكرم مطاوع، وسناء جميل دون أن يحل محلهم أحد.

والإنتاج السينمائي المصري الذي بلغ نحو مائة فيلم في بعض السنوات 1986 مثلا تراجع خلال السنوات العشر الماضية تراجعا مخيفا كما وكيفا، فلم يعد يزيد على عشرين فيلما في العام لا ينجح منها فنيا أو تجاريا إلا القليل. لقد انتصرت أفلام المسخرة على أفلام يوسف شاهين، وخيري بشارة، ومحمد خان، ولقد سمعنا من قبل، ولا نزال نسمع عن أفلام المقاولات التي تلفق تلفيقا لتدخل بعض الأسواق، وعن تعليمات مكتوبة يرسلها الموزعون في بعض الأقطار المجاورة إلى السينمائيين المصريين ليلتزموها في أفلامهم، وإلا منعت من الدخول. والمقصود بهذا هو الترويض والإذلال، هذا في الوقت الذي تتدفق فيه الأفلام الأمريكية على مصر، وتغلق المعامل المصرية أبوابها، لأن المنتجين المصريين يفضلون تحميض أفلامهم في الخارج!.

فإذا كانت الكتب، والصحف، والمجلات، والأغاني، والمسرحيات،

www.alkottob.com

والأفلام التي ننتجها قد تراجعت على هذا النحو الصارخ، وفقدت مكانها في داخل مصر وخارجها، فالقضية لم تعد محصورة في الثقافة، بل هي الآن قضية أمن قومي. وأنا لا أهول، ولا أبالغ، ولا ألقي الكلام على عواهنه، وإنما أعني ما أقول، وأراه وأستطيع أن أجعل غيري يراه.

إن ثقافتنا الوطنية الحديثة ليست إلا تعبيرا عن كياننا الوطني في هذا العصر الحديث، فإذا كانت ثقافتنا تتراجع فهذا التراجع دليل على وجود أخطار تهدد الكيان من أساسه.. وهذا ليس مجرد نظريات، وإنما هو واقع نلمسه في ظهور التيارات الدينية المتخلفة وانتشارها إلى الحد الذي يهدد الأساس الذي قامت عليه الدولة الوطنية، وهو أن الوطن هو بيتنا المشترك الذي نحقق فيه وجودنا، ونصنع تاريخنا، ونمارس نشاطنا، ونحمي مصالحنا، ونبلغ سعادتنا في هذه الحياة الدنيا، وأن مصر لم تعد ولاية في إمبراطورية دينية، بل هي بلد مستقل له سيادته، والدين لله والوطن للجميع.. فإذا استطاعت فئة أو جماعة أو ثقافة أخرى أن تهز هذا الأساس أو تشكك فيه فقد أصبح وجودنا الوطني في خطر.

وقد آن لنا أن نرفع رءوسنا التي دفناها طويلا في الرمال لنرى أن الثقافة الشائعة في مصر الآن المبادرة بالهجوم والقادرة على التأثير هي الثقافة المضادة للثقافة الوطنية التي تحاول أن تتشبث بمواقعها الأخيرة، بينما تواصل الثقافة المضادة هجومها الكاسح متسترة وراء الدين.

هذه الثقافة المضادة لم تعد تتمثل في العادات الريفية الموروثة والأفكار الخرافية التي يؤمن بها الأميون الفقراء، بل هي الآن دور نشر غنية، وصحف ومجلات تصدر في العواصم العربية والأجنبية، وإذاعات

www.alkottob.com

وقنوات تليفزيونية، وجوائز ومهرجانات أدبية تسخر لها الميزانيات، وتجند لها الكفاءات، وتشتري لها الأقلام والأصوات والأسماء والوجوه!.

ونحن نقرأ الآن كتبا صفراء ينبش فيها مؤلفو آخر الزمان قبور زعماء النهضة ورواد الثقافة الوطنية الحديثة من أمثال الأستاذ الإمام محمد عبده، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وعلي عبد الرازق، ويمرغون ذكراهم في التراب، ويجعلونهم ممالئين للاستعمار، أبواقا للمستشرقين، صنائع للغرب، مرتدين عن دين الإسلام معتنقين للنصرانية! ونحن نسمع عن مبعوثين يأتون إلى مصر مزودين بالملايين التي يدفعونها لمن يسرق لهم المخطوطات، أو يسلمهم أصول الأفلام، أو يعطيهم ما في عهدته من التسجيلات الغنائية النادرة، أو يعتزل التمثيل، أو يشتم الديمقراطية، والعلمانية، وحقوق الإنسان. غزوة جديدة هدفها استئصال كل ما نملكه من الجذور.. الآثار القديمة والإبداعات الجديدة، وحتى الطمي الذي يجرفونه أو يبنون عليه بالأسمنت المسلح، باختصار تصحير مصر ومحو كل ما صنعه النيل والإنسان فيها.

ومع ما في هذه الثقافة المضادة من عداء للحياة، وكراهية للحرية، ومفارقة للعقل والمنطق وتهديد لمصالح الفرد والأمة، فقد نجحت زراعتها عندنا، لأن الظروف كانت مواتية: الحكم الفردي، وهزيمة يونيه، وعربدة النفط، وسقوط الأحلام، وانهيار النظم الاشتراكية، وعصر الانفتاح وإثارته لغرائز البطن والفرج، وعلى الدنيا السلام!.

وها هي الآن هذه الثقافة المضادة لغة تتردد في كل مكان، وسلوك تواجهه في الشارع، والحارة، ومكاتب الحكومة، ودكاكين الباعة، والميكروباص، بل تواجهه أيضا في معاهد العلم وأماكن العبادة!

www.alkottob.com

لقد خسرنا الكثير في كل مجال، ماديا ومعنويا، ما كنا نحلم بإنجازه، وما أنجزناه بالفعل. ولقد ضعف الشعور بالانتماء، وتراجعت آداب المهنة وتقاليدها، سواء كانت النجارة أو كانت الطب، ولم يعد المال العام مصونا، ولم يعد المعلم مربيا، ولم يعد احترام الخصوصية أو الحرية الفردية مفهوما، واللغة تتدهور يوما بعد يوم، ومطربو الملاهي يغنون في دار الأوبرا، والشتائم البذيئة تهب عليك في نومك ويقظتك بدلا من صوت أم كلثوم، وعبد الوهاب ومحمد رفعت.

هل كنت أهول أو أبالغ حين قلت إن القضية لم تعد محصورة في الثقافة.. بل هي الآن قضية أمن قومي؟!.

www.alkottob.com

عمل المثقف.. وعمل الموظف!

من حق القراء أن يناقشوني فيما قلته عن الثقافة المصرية، وسوف أرحب دائما بمن يختلفون معي، وأفسح لهم صدري، لأن القضية التي أثرتها ليست قضيتي وحدي، وليست قضية فئة محدودة، ولكنها قضية المصريين جميعا. فالثقافة كما قلت وكما نقول جميعا شرط جوهري من شروط وجودنا. فإذا كانت حقا في خطر فوجودنا كله في خطر. أبناؤنا وأحفادنا في خطر. وهذا الخطر ليس مجرد احتمال أو تهديد بعيد، ولم يفاجئنا اليوم، ولم يأخذنا على غرة، وإنما هو خطر ماثل صريح يهددنا منذ أربعة عقود على الأقل، ويضيق علينا الحصار يوما بعد يوم. وقد تجاهلناه طويلا لأنه لم يكن مسموحا لنا بمواجهته أو بالحديث عنه، إلا أن يكون حديثا جزئيا محصورا في هذا المجال أو ذاك. مرة عن احتجاب المجلات أو تراجع القراءة، ومرة عن غياب الترجمة، ومرة عن ركود النشاط المسرحي أو عن كساد صناعة السينما. والحل تغيير المسئول، أو دعم الميزانية، أو إقامة مهرجان، أما الأسباب الأصلية التي ينتج عنها هذا الغياب، وهذا الكساد، وهذا التراجع الشامل فلا يتحدث فيه أحد، لأنه في هذه الحالة سيصطدم

www.alkottob.com

بالسلطة التي انتزعت الثقافة من أحضان المثقفين وحولتها إلى وظائف ومكاتب للموظفين.

ومن المؤكد أن هناك أسبابا أخرى للتراجع، لكنها طوارئ تأتي وتذهب، أو نتائج لهذا السبب الأصلي الذي آن لنا أن نسميه بصراحة، وأن نعيد النظر في الأسلوب الأمثل الذي تستطيع به الدولة أن تدعم الثقافة، وتستطيع به الثقافة أن تكسب رعاية الدولة دون أن تخسر حريتها واستقلالها.

نعم. لقد آن لنا أن نراجع تجاربنا، فالمواسم الكاسدة، والمحاصيل الهزيلة تفرض علينا هذه المراجعة التي لابد منها إذا كنا نريد حقا أن ننتفع بأخطائنا، ونستأنف نهضتنا، ونخطط لتنمية جديدة شاملة نستثمر فيها ثرواتنا وأولاها عقول المصريين، ومواهبهم، وخيالهم، وعواطفهم، وما ورثوه من آبائهم وأمهاتهم، وما اختزنوه في أرواحهم وأفئدتهم من حكمة، وإرادة، وإقبال على الحياة، وإصرار على التقدم.

نحن لن نضاعف ثرواتنا المادية إلا بالعلم، ولن نصلح إدارتنا، ولن نقاوم الطغيان والتخلف والفساد والتعصب والأنانية إلا بالعقل. الحرية وعي، والسعادة فن، والتقدم صبر وخبرة. ولهذا أثير قضية الثقافة المصرية وأدعو لمناقشتها في هذا الوقت الذي تناقش فيه قضية التنمية بجوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. توسيع النشاط الديموقراطي وتعميقه، وتحديث الصناعة والزراعة، وتوفير فرص العمل، وتحرير المرأة، وإدارة الحوار مع الثقافات الأخرى، وتعريف العالم بقضايانا، وإقناعه بوجهات نظرنا، ومشاركته في بناء نظام جديد يقوم على احترام حقوق الإنسان وحقوق الأمم، كل هذا ثقافة، ولن يتحقق إلا بالثقافة. فإذا كانت ثقافتنا في خطر، فكل شيء في خطر.

www.alkottob.com

والذين تابعوا ما نشرته الصحف اليومية والأسبوعية حول هذه المسألة في الأسابيع الأخيرة رأوا أن كثيرا مما جاء في مقالاتي الأخيرة ليس رأيا شخصيا، ولكنه رأي عام. غير أن هذا لا ينفي وجود آراء أخرى لا ينبغي أن نتجاهلها، فنحن لا نحتاج إلى اتفاق سريع قدر حاجتنا لإثارة قضية الثقافة، وتوسيع دائرة الاهتمام بها، والوصول إلى تفاهم حولها يظل مفتوحا للمراجعة، والنقد، والتعديل، والإضافة.

ونحن نستفيد من الرأي المختلف فائدتين: الأولى تصويب ما نقع فيه من خطأ، والأخرى تدعيم وجهات نظرنا بحجج جديدة لا نستطيع أن نستنبطها أو نكتشفها إلا حين نتصدى للمناقشة ونقارع الحجة بالحجة.

قال لي صديقي العزيز: قرأت ما تكتبه عن الثقافة المصرية، فوجدتك تقف عند الجوانب السلبية، وتعممها على النشاط الثقافي كله. قلت له: وكيف وجدت ذلك؟ قال: وجدته في حديثك عن تراجع النشاط الأدبي والفني. وأنا اتفق معك في هذا إلى حد ما، لكن نشاط الأدب والفن جانب واحد من جوانب الثقافة لا يجوز أن نحصرها فيه، ولا يصح أن يكون ضعفه أو تراجعه دليلا على أن بقية الجوانب ضعيفة أو هابطة. فالثقافة ليست شعرا ورسما ومسرحا فقط، الثقافة فكر وعلم أيضا. وهي ليست أفكارا وخيالا وانفعالا فحسب، ولكنها عادات وتقاليد من ناحية، وأدوات ووسائل من ناحية أخرى. ونحن لا نستطيع أن نفصل بين الكتاب من حيث هو تأليف والكتاب من حيث هو طبع ونشر وتوزيع. والمسرح لا يتحقق بالنص وحده، وإنما يتحقق بالنص والتمثيل والإخراج. وإذا كنا نقرأ الكتب فرادي، فنحن نشاهد العروض المسرحية والسينمائية مجتمعين. وباستطاعة الواحد

www.alkottob.com

منا أن يقتني بعض التسجيلات الغنائية والموسيقية لكنه لا يستطيع أن يقتني مغنية أو فرقة موسيقية. والثقافة إذن ليست دائما نشاطا فرديا، ولكنها أيضا نشاط جماعي. وهي ليست إبداعا فحسب، بل هي كذلك مؤسسات لا يتحقق هذا الإبداع إلا بها. أنها دور نشر، ومسارح، واستوديوهات، وقاعات عرض، ومتاحف، ومعاهد، وهذه الأوجه المتعددة المختلفة للنشاط الثقافي لا تخضع لشروط واحدة. نحن نستطيع أن نتحكم في مناهج تعليم الأدب أو الموسيقي أو التصوير، لكننا لا نستطيع التحكم في مستوى الإنتاج الأدبي أو الفني.

وأنت تقول والكلام لا يزال لصديقي العزيز أن هذا الإنتاج ليس في أحسن أحواله، وأنه تراجع خلال العقود الأخيرة كما وكيفا. ونحن نستطيع أن نتفق معك في هذا، لكن الحكم الذي يصح على الأفراد المبدعين من الأدباء والفنانين لا يصح بالقدر ذاته على المؤسسات الثقافية. إن أحدا لا يستطيع أن ينكر ما تقوم به أكاديمية الفنون، وهيئة الكتاب، والمجلس الأعلى للثقافة، ودار الكتب، وهيئة الآثار، وقصور الثقافة، ودار الأوبرا، ومجمع الفنون، وغيرها من هيئات وزارة الثقافة في اكتشاف المواهب، وتثقيفها، وحماية التراث، وتشجيع الإنتاج والإبداع، وتوفير الزاد الثقافي لعامة المواطنين.

ولقد حقق مشروع مكتبة الأسرة نجاحا لا ينكر، وبلغ عدد الكتب الصادرة في المشروع القومي للترجمة نحو ستمائة كتاب، واحتفلنا في العام الماضي بافتتاح مكتبة الإسكندرية، وعمليات التنقيب والترميم متواصلة، والعمل في المتحف المصري الجديد يجري على قدم وساق، المعرض الدولي للكتاب، ومهرجان المسرح التجريبي، ومهرجان السينما، ومعارض الفنون التشكيلية المحلية والدولية لا تنقطع، وهذا كله نشاط ثقافي يتميز بالتنوع والحيوية.

www.alkottob.com

وأنا والكلام الآن لكاتب هذه السطور لا أنكر وجود هذه المؤسسات، ولا أنكر ما تقوم به من نشاط. لكنني أنظر في المحصول فأجد اليابس أكثر من الأخضر، والفارغ أكثر من الملآن! ولاشك أن في هذا الحكم قدرا من التعميم والإجمال، لكني واثق من أن الفرز الدقيق يؤكده ويصدقه. لو قمنا به. لكن النقد عندنا فريضة غائبة. وغيابها دليل آخر على اللامبالاة التي قد نفهمها من المثقف الفرد، لكننا لا نفهمها من المؤسسة الثقافية التي يفترض أن تكون أقرب إلى الالتزام والموضوعية وأكثر إحساسا بالمسئولية.

لا توجد لدينا إحصاءات دقيقة، ولا يوجد تقييم دوري للإنتاج الثقافي، ولم يحدث حتى الآن أن قامت مؤسسة ثقافية بمراجعة نشاطها، أو أطلعتنا على ما أنجزته وما لم تتمكن من إنجازه. والمفترض أن يكون نشاط المؤسسة أفضل أو أكثر انتظاما والتزاما بمستوى لا يجوز أن تنزل عنه، لان المؤسسة تتعامل مع إنتاج متنوع يقدمه عديد من المبدعين، فالمجال أمامها رحب، وبوسعها أن تختار وأن تعوض مادة بغيرها أو بأفضل منها. لكننا نري أن التراجع شامل، وأن النشاط الفردي ليس هو وحده الضامر الهزيل، بل نشاط المؤسسات أكثر ضمورا وهزالا. ولقد كنت متنبها دائما إلى أن الثقافة لا تنحصر في الإبداع الأدبي والفني، بل هي أيضا عادات وسلوك، وقيم وأذواق، ونظم وقوانين لا ينفصل بعضها عن بعض، وأن تعددت واختلفت، وإنما تنتظم في كيان واحد يتجسد في حياتنا الفردية والاجتماعية، ويتصل كل منا به على نحو معين. الأمي، والمتعلم، والمثقف كل منهم له من الثقافة القومية نصيب. ونحن نرى أن سلوكنا العملي في هذه السنوات الأخيرة ليس أفضل من إنتاجنا الأدبي والفني، والتراجع إذن شامل.

www.alkottob.com

ما العمل إذن؟

العمل أن نراجع نشاطنا الثقافي في الأعوام الخمسين الماضية، ونعيد النظر في الأسلوب الذي تستطيع به الدولة أن ترعى الثقافة وأن تسهم في ازدهارها. فالدولة لا تنتج الثقافة. والثقافة لا تخدم الدولة. وليس للموظفين أن يحلوا محل المثقفين، ولا للمثقفين أن يحلوا محل الموظفين!

www.alkottob.com

ضمير لا يكذب ولا ينافق!

كنت قاسيا على نفسي وعلى غيري حين أعلنت أكثر من مرة في الأسابيع الأخيرة أن الثقافة المصرية ليست بخير، وسوف أواصل هذه القسوة فأواجه نفسي، وأواجه غيري بما أراه وألمسه من صور الضعف الذي تعانيه ثقافتنا، لا أخفف من وقعه على أحد، ولا أتستر على شيء فيه. ويبقي بعد ذلك أن يناقشني الناس فيما أقول، وأن يصححوا لي ما يمكن أن أقع فيه من خطأ أو مبالغة.

وأتمنى أن تكونوا قرأتم ما كتبه الدكتور مجدي عرفة أستاذ الطب النفسي ونشرته الأهرام في حلقتين بعنوان ماذا حدث للإبداع في مصر؟! ١١ و٢١ نوفمبر ٢٠٠٣ وما كتبه الدكتور مأمون فندي عن القوة الناعمة والدور المصري –أهرام الجمعة ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣. وما كتبه المحامي الأستاذ رجائي عطية بعنوان لماذا ضاع الإحساس بالقبح؟! الجمهورية ١٥ ديسمبر ٢٠٠٣. فإذا لم تكونوا قرأتموها فأرجو أن ترجعوا لها لتعلموا أني لست القاسي الوحيد! أنا لا أرى الآن إنتاجا ثقافيا جديرا بأن يرضينا ويطمئننا بكمه وكيفه، في أي مجال من المجالات أو فن من الفنون.

www.alkottob.com

ولا شك أن لدينا كتبا تصدر، ومسرحيات تعرض، وأفلاما تصور، ومعارض تقام، لكن الموسم الثقافي أو العام كله ينصرم دون أن يظهر اسم جديد، أو عمل متميز يلبي الحاجة، ويفرض نفسه على الجمهور. مثلا، كم شاعر أو روائي أو مؤلف مسرحي ظهر عندنا خلال السنوات العشر الماضية؟.. وما هي الدواوين، والروايات، والمسرحيات، والدراسات، والأفلام، والأعمال الموسيقية التي نستطيع أن نعتبرها أحداثا أو إضافات حقيقية لتراثنا الباقي في الفن والأدب؟ قارن هذه العشر الأخيرة العجاف بالعشرينيات، أو الثلاثينيات، أو الأربعينيات، أو الخمسينيات أو الستينيات. في القرن الماضي، لتعرف أي تراجع بلغته الثقافة المصرية. والمخيف أنه تراجع شامل مطرد.. شامل لأنه لا ينحصر في فن دون آخر، ومطرد لأنه لا يقف عند حد، بل هو منتشر مستمر ممتد متواصل تزداد خسارتنا به عاما بعد عام. بعضهم يحصر هذا التراجع في فنون ويبرئ منه فنونا أخرى.. يقال مثلا إن إنتاجنا في الشعر ضعيف حقا، لكن الرواية المصرية مزدهرة. والنشاط المسرحي العادي هزيل متقطع، لكننا نعوضه بمهرجان المسرح التجريبي! ومن المؤكد أن المرض الذي نشكو منه ليس درجة واحدة في كل هذه الفنون. ولابد أن يجد من المقاومة في بعضها ما لا يجده في بعضها الآخر، لكن أسبابه واحدة، وأطواره معروفة، فإذا كانت الرواية أو سواها مازالت تقاوم حتى الآن فسوف تعجز عن المقاومة غداً مادامت الجرثومة تعمل عملها الهدام. وإذا كنا لا نملك إلا الاعتراف بما صارت إليه لغتنا القومية من ضعف وتفسخ، وبما تلقاه في المدرسة والجامعة والإذاعة والتليفزيون، والمكاتب الحكومية، والصحف، والكتب من إهمال واحتقار، فليس لأحد أن ينتظر إنتاجا أدبيا جيدا، لا في الشعر، ولا في النثر. وليس لأحد أن ينتظر جمهورا

www.alkottob.com

من القراء قادرا على الفهم والحكم والتذوق. وإذا كانت مسارح الدولة والمسرح القومي في مقدمتها، قد تعرضت لهذا العبث الذي تعرضت له طوال الأعوام الثلاثين الماضية، فالنتيجة هي ما نراه الآن. قد ينجح عرضٌ من العروض، لأن المخرج استعان بنجم من نجوم السينما، أو لأنه أضاف للعرض بعض الأغاني، أو أطلق للممثلين الحرية في تطعيم الحوار ببعض المشهيات الحريفة، لكن المسرح الآن يبدو وكأنه قد فقد جمهوره. ولن يقلل من هذه الخسارة الفادحة أن نقيم مهرجانا للمسرح التجريبي، فمهما قيل عن نجاح هذا المهرجان الذي يعقد مرة كل عام، ويخاطب المشتغلين بفن المسرح أكثر مما يخاطب الجمهور، فهو لا يستطيع أن يعوضنا عن النشاط المسرحي العادي. ولا يستطيع أحد أن يجادل في أننا لا نزال حتى الآن قادرين على أن ننتج فيلما أو فيلمين جيدين كل سنة.. هل يعوضنا هذا عن نحو مائة فيلم كنا ننتجها كل عام في سنوات ازدهار هذه الصناعة؟ قد يقال إن نسبة كبيرة من هذه الأفلام كانت مجرد استثمار سهل مضمون الربح، غير أن أحدا لا ينكر ما حققته السينما المصرية من انتصارات فنية وفكرية، فضلا عن أنها كانت مصدرا من مصادر الدخل القومي، وكانت وسيلة من وسائل الاتصال بالجمهور العربي الواسع وكسبه إلى جانب اختياراتنا الثقافية والسياسية في مرحلة اشتد فيها الصراع بيننا وبين القوى المتخلفة المعادية للنهضة والتحديث والتقدم.

في تلك المرحلة كنا نسعى لتعميق الوعي بفكرة الوطن، والاستقلال، والدستور، والديمقراطية، والمجتمع المدني، والحريات العامة، ونقف مع الطبقات المظلومة، ونطالب بتحرير المرأة والتسليم بحقها في التعليم، والعمل، والسفور، والحب، واختيار شريكها في الحياة. لقد استطاعت السينما المصرية، والكتاب المصري، والمجلة

www.alkottob.com

المصريــة، والأغنية المصريــة، أن تكسب الجمهور العربــي الواسع إلى جانــب هذه القضايــا والأفــكار، وأن تثير إعجابه بمصــر، ورغبته في اقتباس نهضتهــا والانتفاع بإنجازاتها في هــذه المجالات المختلفة، وضمنــت بالتالي وقوفه معها في المعارك التي خاضتها ضد الخرافة، والطغيان، والتخلف، وها نحن نرى أن تراجع هذه الفنون وهذه المنابر لم يضعف قدرتنا على التمكين لفكرة النهضة خارج بلادنا فحسب، بل فتح بلادنا أمام الهجمات المضادة التي شنتها القوى المتخلفة علينا، وتمكنــت من أن تكسب بها جماعــات واسعة من أبنائنا وبناتنا ارتدت إلى عصــور الظــلام، وأصبحت تتبنى أفكارهــا، وتتكلم لغتها، وترتدي أزياءها.

بالأمس كنا نزور المدن العربية مــا بين المحيط والخليج، ونتوغل في أحيائها الشعبية، فنجد أهلهــا يتسابقون لإثبات معرفتهم الدقيقة لبلادنــا، وإظهار قدرتهــم على الكلام بلهجتنا. وليس غريبا أن يكون اثنــان مــن أعظم شعــراء العاميــة المصريــة مــن أصــول عربيــة غير مصرية. بيرم من تونس، وفؤاد حداد من لبنان! واليوم نسمع مصريين يتشدقون بلهجات لا ندري أين تعلموها، ويتقاطرون بالمئات والآلاف على عشرات من المكتبات والسرادقات والأرصفة التي انتشرت انتشار الأوبئــة، وتخصصــت في بيع كتب الخرافة والشعــوذة لينالوا نصيبهم مــن هــذه الثقافة الســوداء الوافــدة التي تفسر لهم الأحــلام، وتعالج المحسوديــن، والمصروعــين، وضحايــا السحر، وتحذرهم مــن النساء، وكيــد النساء، وخطــر مشاركتهن للرجــال، فضلا عمــا تعرضه عليهم مــن حكايات عــن زواج الجان من بني الإنسان ومــن حوار ساخن مع جــن مسلم وجن مسيحي إلى آخــر هذه الخزعبلات المضحكة! لم يحدث طبعــا أن صــودر كتاب من هــذه الكتب أو منع من التــداول، كما حدث

www.alkottob.com

مـرارا لما يكتبـه المدافعون عن العقـل والحرية. ولم يحـدث أن اهتمت هيئـة مـن الهيئـات، أو مؤسسة مـن المؤسسـات بدراسة هـذا النشاط المحمـوم، ومعرفة مصـادر تمويله، وما ينتظم فيه مـن مطابع، ودور نشر، ومكتبـات، واستوديوهات، وتقديم إحصاءات دقيقة لهذه الكتب، ومـا تدور حولـه من موضوعـات ولجمهورهـا، وللكميـات المطبوعة منهـا. ومعنى هذا أننـا فقدنا إحساسنا بالقبـح، ولم نعد نبالي به، بل أصبحنـا نسهـم في إنتاجه كما يقول الأستاذ رجائي عطية في مقالته التي أشرت إليها من قبل.

فـإذا قارنا بين جمهـور هذه الكتب، وجمهور مكتبـة الأسرة، تبين لنا أن جمهـور الخرافة والشعوذة أضعاف أضعاف جمهور طه حسين، والعقـاد، والحكيم، وزكي نجيـب محمود، ونجيب محفـوظ، وإذا قارنا بـين جمهـور الأغنية المنحطة وجمهـور أم كلثوم وعبـد الوهاب تبين لنـا أن جمهور الأغنيـة المنحطة أقوى وأوسع. وكذلـك الحال في بقية الفنـون، أو هـي أسـوأ، وإلا فكيـف نتوقـع أن يكـون جمهـور الأوبـرا، والباليـه، والموسيقي السيمفونيـة في هذا المناخ المسموم؟ فإذا كانت لغتنا الآن فاسدة ركيكة بلهجتها الفصحى ولهجتها الدارجة معا، وإذا كانت مسارحنا فارغة، واستوديوهاتنا خاوية على عروشها، فثقافتنا تعـاني من مرض عضال، وربمـا كانت تعاني من عدة أمراض في وقت واحـد. لقد أثقـل الحكم العسكري حرية التفكـير والتعبير بقيود غليظة، وفرضـ عليها أشكالا مـن الرقابة الظاهرة والخفيـة، ثم كانت هزيمة ١٩٦٧ التـي ضربـت الثقافة المصريـة، والعربية عامـة في الصميم، لأنهـا فاجأتنا، وشلت تفكيرنـا، وشككتنا فيما كنا نؤمن به، ونثق في صوابه، وواجهتنا بما وقعنا فيه من تقصير، يبلغ حد التواطؤ والتخلي عـن أداء واجبنـا كمثقفـين. وهي مشاعـر ثقيلة فادحـة محبطة، ظلت

www.alkottob.com

تتفاقـم حتى أفسـدت علينا شعورنـا بأننا أصحـاب رسالة وأصحاب مشـروع. أصبح مشروعنـا القومي اليوم هو ألا يكـون لنا مشروع! ثم كانـت سيطرة الدولة على النشاط الثقافي بكامله سببا آخر من أسباب التراجع وانخفاض المستوى لأن الدولة تفضل الكم على الكيف. وتهتم بالمظهـر أكثر من اهتمامها بالقيمة، وتضع الجمهور الذي تستطيع أن تقـوده فوق النخبة التـي لا تسلم لأحد قيادها، ولهـذا تفرط في إقامة المهرجانـات والاحتفـالات وتستغلهـا في الدعاية لنفسهـا، والترويج لسياساتهـا، فتفرغ الثقافة من مضمونهـا، وتبعدها عن أداء رسالتها النبيلـة، وهي أن تكون ضميرا لا يعرف النفاق أو الكذب، فإن وقع فيه ولـو مرة واحدة سقط سقطة يصعـب عليه أن ينهض منها، وهذا هو ما نجد أنفسنا فيه الآن.

www.alkottob.com

إنها مسئولية المثقفين.. والوزراء أيضا!

نحتاج أحيانا للتذكير بالأولويات البسيطة التي يستطيع كل منا أن يتذكرها بنفسه، ويفهمها دون أن يتلقى مساعدة من أحد. ومن هذه الأولويات ألا نخلط بين الثقافة ووزارة الثقافة، أو بين الثقافة ووزراء الثقافة. لكن بعضهم يخلط، ويظن أن الناس كلهم يخلطون، فإذا قلت مثلا أن الثقافة المصرية ليست في أحسن أحوالها، فأنا أقصد بهذا القول وزارة الثقافة. وإذا قلت إن الإنتاج الأدبي في بلادنا يتراجع كما وكيفا، أو أن الحركة المسرحية راكدة، أو أن الحركة التشكيلية تائهة متخبطة، وان المثقفين المصريين لا صوت لهم ولا دور فأنا أنتقد وزير الثقافة. نحن هنا مضطرون لان نذكر بالأولويات، وأن نبرهن على أن الثقافة ليست وزارة الثقافة، وأن الوزارة ليست الوزير.

الثقافة المصرية هي هذه الصروح الشامخة الخالدة من الأهرام والمعابد، والقصائد والمساجد، والنظم والعقائد، والحكايات والروايات، والمواويل والأغاني، والأعراف والتقاليد، والقيم والحكم، والمثل والمهارات التي يتمثل فيها وجودنا أفرادا وجماعات. هي هذه العلاقة الصوفية الجسدية التي تربط المصريين بمصر، هذه الأريحية

www.alkottob.com

التي يتميز بها ابن البلد. إنها ليست سخاء ماديا، وليست اندفاعا وراء علو المنصب وحسن السمعة، ولكنها ظرف ولباقة وجود بالموجود. ونحن نفتقد هذه الأريحية كثيرا في هذه الأيام. والثقافة المصرية هي هذا الدلال الأنيق المانح المانع الذي تتميز به بنت البلد، وإن لم نعد نراه في هذه الأيام إلا نادرا!

الثقافة المصرية إذن حقيقة قديمة، عمرها من عمر المصريين الذين أبدعوها كما أبدعتهم، وشكلوها كما شكلتهم. في باريس، ولندن، وروما، ونيويورك تقع عيني على النادل في المطعم أو البيتزاريا، أو على بائع الخضر والفاكهة، في سوق الباستيل، أو على رجل يشوي الكستناء أبو فروة على رصيف متحف الفن الحديث في نيويورك فأقول في نفسي على الفور: هذا مصري! لا بعلامة مميزة من لونه أو ملامحه، فربما كان من الصعب تمييزه عن أهل البلاد من هذه الناحية، ولكنه السمت، والنظرة، وإيقاع الحركة، وهذا المزيج المدهش من الأنس، والنشوة الداخلية، والسماحة، والحذق، والذكاء، والمكر الذي يسكن وجهه ويكسو ملامحه. وربما قررت أن اختبر صدق حدسي، فأنا مصري أيضا!، فذهبت إلى الرجل أحييه بلغتنا ولهجتنا، فيرد التحية بأحسن منها! لنقل باختصار إن الثقافة المصرية هي مصر. وأظن أن الفرق واضح جدا بين مصر ووزارة الثقافة التي أنشأناها منذ عهد قريب جدا، لا لتصنع لنا ثقافة، بل لتخدم ثقافتنا وترعاها، وتزودها بما تحتاج إليه من أجهزة ومؤسسات وإمكانات مادية وفنية، ولتخدم المثقفين، وترعاهم، وتوفر لهم من الأسباب والوسائل ما يوسع آفاقهم، ويعمق خبراتهم، ويجلو مواهبهم ويفجرها، ويوثق صلتهم بالواقع والعصر والعالم، ويشجعهم على العمل، ويدفع بهم في طريق التجربة والكشف والمغامرة.

www.alkottob.com

يـوم أنشأنـا وزارة الثقافة، عام ١٩٥٨، كانت مصـر عامرة بثقافتها التليدة التي لم تنقطع أبدا، بل ظلت حية تستمد حياتها من حياة مصر، فـإن كانت قد توقفت أو تخلفـت في بعض العصور فقد نهضت في هذا العصر الحديث نهضة مشهودة تمثلت في أجيال متصاعدة من المبدعين الكبـار في الأدب، والفـن، والبحث العلمـي، والفكر الدينـي والفلسفي، وفي عشرات مـن دور النشر، ودور الصحـف والمجـلات، والمسارح، والمتاحـف، واستوديوهات السينما، فضلا عن دار الأوبرا، ودار الكتب، والجامعات، والمعاهد العليا، والجمعيات، والنوادي، وقاعات العرض، وسواها من المؤسسات الكبيرة أو الصغيرة الرسمية والأهلية.

كل هـذا كان موجـودا في مصر قبل أن تنشـا وزارة الثقافة، وكان وجـوده دليـلا ساطعا علـى أن الثقافة المصرية حيـة لأن مصر حية، وأنهـا تيار متدفق لم ينقطع أبـدا، وإن اتصل بتيارات أخرى وافدة من الشرق والغرب، وامتزج بها، وأخذ منها، وأعطاها. وهناك من يظن أن مصر انقطعـت عن ثقافتها القديمة لأنها غـيرت لغتها، ففقدت تراثها القومـي العريق، وانتمت لتراث أصبحـت فيه نـاشئة محدثة. وهذا خطأ يقع فيه مـن يخلطون بين الثقافة واللغة، ومن يعتقدون أن اللغة ثوب جاهز يرتديـه المصري، واليمني، والشامي، والمغربي، فلا يختلف في بلـد عنـه في أي بلد آخر. لا. الثقافـة ليست هي اللغـة، وإنما هي حالة عقلية تتجسد في الكلمات، كما تتجسد في الصور، والعقائد، والألحان، والأساطير، والنظم والقوانين. ولا شك في أن الفلاح المصري المعاصر استمـرار صريح حي لأسلافه القدماء الذيـن اخذ عنهم أكثر بكثير مما أخذ عن سواهم. فضلا عن أن اللغة ليس ثوبا جاهزا الا للأغراب الذين لا ينطقون بها، فإنها توطنت في بلد، وصارت لسانا لأهله صارت لهم قلبا وعقـلا، وتأدبت بأدبهـم، وانطبعت بطابعهم، ونطقـت بأفكارهم

www.alkottob.com

وعواطفهم. لهجتنا المصرية هي لغتنا القديمة بألفاظ عربية. ولغتنا الفصحى تنضح بما في لهجتنا الدارجة من ألوان وعطور وإيقاعات والشاعر الذي غني لزحلة فقال فيما قال:

لم أدر ما طيب العناق على الهوى
حتى ترفق ساعدي فطواك
وتأودت أعطاف بأنك في يدي
واحمر من خفر بها خداك
ودخلت في ليلين شعرك، والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

هو هو الشاعر الذي غنى للبلبل فقال فيما قال:

بلبل حيران
على الغصون
شجي معنى
بالورد هايم
في الدوح سهران
من الشجون
بكى وغنى
والورد نايم

ولغة طه حسين الرائعة توقيعات جسدية، والتفاتات عقلية لا مثيل لها في أي كلام عربي آخر، وإنما نستطيع أن نجد القربي بينها وبين صوت محمد عبد الوهاب الذي كان طه حسين من أشد المعجبين به.

والذي يقال في اللغة يقال في التلحين والغناء، ويقال في النحت

www.alkottob.com

والعمـارة. جوامع مصـر المملوكية تنويعات مـن كنائسها ومعابدها القديمـة. وأنـت تنظر في تمثـال سعد زغلول في حين أنـه بالقاهرة، أو ميـدان الرمـل بالإسكندرية فتجد مظهـرا حديثا لا يختلـف كثيرا عما تجـده في أي تمثـال لزعيـم وطنـي في أي عاصمة أخـرى، لكنك تدقق النظـر فـترى في تمثـال سعـد جوهر مـا تـراه في تمثـال رمسيس في ميـدان بـاب الحديد. عبقريـة التبسيط. الألفـة، والخلـود في وقت معا. وأنـت تذرع كل بـلاد المسلمين لتجد من يقرأ القـرآن الكريم كما يقرأه الشيـخ محمد رفعت، أو الشيخ مصطفي إسماعيل فلا تجد لهذه الألحان السماوية أصلا، فمن حقك أن ترجعها لأصول مصرية قديمة.

وأكاد أكـون واثقا من أن الليالي المصريـة في ألف ليلة لها أصول في حكايات أسلافنا الفراعنة.

وبوسعنـا أن نختلـف في تقديـر ما هو مستمر مشـترك في ثقافتنا القديمـة وثقافتنـا الحديثـة، وهـل نعتبرهمـا ثقافتـين مختلفتـين؟ أم نعتبرهمـا ثقافـات متعـددة، لان ثقافـة المصريـين في العصـور الفرعونيـة غير ثقافتهـم في العصر المسيحي، وثقافتهـم في العصور العربيـة الإسلاميـة، الأولى غير ثقافتهم في العصـر الحديث؟ أم نعتبر هـذه الثقافات كلها ثقافة واحدة مرت بعصور عدة، واستخدمت أدوات مختلفة؟ لكننا سنتفق لا محالة على أن مصر كانت دائما تفكر وتغني، وترسم وتبني، وأن الثقافة كانت خبزنا، وماءنا، وملجأنا في كل العصور التي تقدمنا فيها، وتخلفنا، وانتصرنا، وانهزمنا، وتأثرت ثقافتنا بهذا التاريـخ المتقلب الذي ارتفع بنا إلى الذروة آلافا من السنين، وانخفض بنـا إلى الحضيـض آلافا أخرى. حتى قدر لنـا أن ندخل في هذا العصر الحديث الذي كان شأننا فيه كشأننا في تاريخنا كله. دورات من النهوض والتعثر، والتقدم والتراجع، والاختـلاط والعزلة، والانفتاح والانغلاق.

www.alkottob.com

أليس من حقنا أن نقف اليوم، وقد تقلبنا في نظم مختلفة، ورفعنا شعارات، وأسقطنا شعارات أخرى، وودعنا قرنا، واستقبلنا قرنا، وخرجنا من نظام عالمي، ودخلنا في نظام عالمي جديد أليس من حقنا أن نسأل عن ثقافتنا، وان نختبر كفاءتها، وحيويتها وقدرتها على التجدد والعطاء ومواجهة الظواهر والحقائق والحاجات الجديدة، والحوار مع الثقافات الأخرى؟ بلي، من حقنا أن نطرح هذه الأسئلة وأسئلة أخرى لم نطرحها من قبل، أو لم نصل فيها إلى جواب مقنع.

فليست الثقافة مولودا أو مهرجانا كما نراها في هذه الأيام. إنها بحث دائب، ومواجهة صريحة، مواجهة للنفس، ومواجهة للآخرين، ومواجهة للواقع، لأننا لا نستطيع أن نواصل الحياة، ونؤدي رسالتنا فيها إلا إذا كنا متصالحين مع أنفسنا، متفاهمين مع الآخرين، قادرين على تغيير الواقع وتطويعه.

والثقافة المصرية ليست في أحسن أحوالها الآن، لأنها لا تتجدد، ولا تنمو، ولا تسعى لغاية، ولا تبحث عن كمال، بل هي لا تحافظ حتى على المستوى الذي بلغته على أيدي الأجيال السابقة.

والأدهى من ذلك أن النقد صامت صمت أبي الهول أو صمت القبور. فنحن نجهل ما صرنا إليه من ضعف أو نتجاهله. لا نفكر في حاضر ثقافتنا ولا في مستقبلها. لا نواجه أنفسنا، ولا نواجه غيرنا. ونحن إذن بلا دور.

والذي لا دور له لا وجود له، أو أن وجودنا مهدد محفوف بالأخطار. والمسئولية تقع أولا على عاتق المثقفين المصريين، لأنهم هم الذين يصنعون الثقافة وينتجونها، وهم المطالبون بالتفكير في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. غير أن وزارة الثقافة تتحمل

www.alkottob.com

هـي الأخـرى جانبـا مـن المسئوليـة، لان وزارة الثقافـة تسيطـر منـذ أكـثر مـن أربعـين عامـا علـى النشـاط الثقـافي وتوجهـه بمـا تملـك مـن معاهـد ومتاحـف، ومسـارح، ومجالس، وجوائـز، ودور عرض، ومكتبـات وميزانيـات. وزارة الثقافـة هـي المربـي الأول، والموجـه الأول، والناشـر الأول، والعارض الأول، والمقتنـي الأول. لكننـي لا أوجه اتهامـا لأحد بعينـه، أو لمؤسسة بالـذات، فالمسئولية مشتركـة، والتراجع لم يبـدأ اليوم، وأسبابه كثـيرة، وإنما أدعو الجميع لمراجعـة صريحـة، ومواجهة شاملة يتخلى فيهـا كل منا عن أنانيته، ويتجـاوز حدود حرفته ووظيفته، لنتمكن من الوقوف جماعة في وجه هـذا التراجع المطرد، نعـرف أسبابـه، ونحاصرهـا، ونعالجها، وننقذ الثقافة المصرية، فالثقافة المصرية هي مصر.

www.alkottob.com

حول علاقة الدولة بالثقافة

إذا كان الوقت قد حان لتبدأ الثقافة المصرية الحديثة مرحلة جديدة من حياتها تسائل فيها نفسها، وتراجع سيرتها، وتقيم ما حققته لاستكمال أدواتها الفنية، وتأكيد حضورها الفاعل في المجتمع إذا كان الوقت قد حان لتبدأ الثقافة المصرية هذه المرحلة الجديدة، فالوقت قد حان إذن لنعيد النظر في علاقة الثقافة بالدولة، أو بالأحرى في الشكل الذي تحققت به هذه العلاقة في نصف القرن الأخير، فكانت له هذه النتائج السلبية التي نلمسها جميعا في تهافت إنتاجنا الأدبي والفني في السنوات الأخيرة، وفي ضعف الشعور بالانتماء، وانخفاض نسبة المشاركين في النشاط القومي، وانتهاك القيم الاجتماعية، والعدوان على المال العام، كما نلمس هذه النتائج السلبية في غياب الدور الذي كان على الثقافة المصرية والمثقفين المصريين أن يضطلعوا به في التأسيس لنهضة جديدة شاملة نخرج فيها من أوهامنا القديمة والجديدة، ونعرف أنفسنا معرفة موضوعية نضع فيها كل شيء في حياتنا موضع النقد والمساءلة، ونسيطر على مقدراتنا، ونكتشف قوانا المادية والمعنوية المحبوسة بالخوف والكبت وانعدام الثقة في النفس،

www.alkottob.com

واللامبـالاة، ونستثمـر هذه القـوى، وننميها، ونحتـل مكاننا في عالم اليـوم، ونشـارك في صنعه بمـا نعتقد أنه حق وعـدل، ونصبح جزءا لا يتجـزأ منه ومن حضارته الجامعة التـي يجب أن نكون فيها منتجين، وإلا تحولنا إلى مجرد أدوات أو مجرد خامات تستخدم وتستهلك.

والثقافـة لا تستطيـع أن تنهض بهـذا الـدور الإيجابـي إلا إذا تحـررت من كل قيـد، وغامرت في سبيـل المعرفة والكشـف، وانفتحت علـى كل احتمـال، وامتلكـت زمـام المبـادرة، واستعـادت حقهـا في مراجعـة نفسهـا ومراجعـة غيرهـا، وابتعـدت بالقـدر الـكافي عـن السلطـة لتقـترب بالقـدر الـكافي مـن الأمـة أو المجتمع، وهـذا شرط جوهـري لا تستطيـع الثقافـة بدونـه أن تـؤدي رسالتهـا، أو تحقـق معناهـا الـذي نفهمـه حين نتحدث عـن الثقافـة في العصـر الحديث. ومـن المعـروف أن المعنـى الأول الـذي كان يفهمـه النـاس في العصـور الماضيـة مـن كلمـة الثقافـة يختلـف عـن معناهـا الـذي نفهمـه الآن مـن الكلمـة، سـواء في لغتنـا أو في اللغـات الأخـرى. الثقافـة عند الأوروبيين كانت حتـى أواخر القرن الثامن عشر مرتبطة بالحيـاة الريفيـة وتقاليدها. وكلمـة الثقافة في اللغـات الأوروبية لم تكـن تدل إلا على معنى النمو، واستصـلاح الأرض، وتهيئتها للزراعة، واكتسـاب المهـارة في عمـل مـن الأعمـال أو في حرفـة مـن الحـرف. ولم تكـن الكلمـة تعنـي في اللغـة العربيـة إلى عهـد قريـب إلا معناها المرتبط بالحياة البدوية التي كان يعيشها العرب القدماء، وهو الحذق، والامتلاك، وتقويم الرمح، واستعمال السيف، والعراك والخصام.

وحتـى أواخـر القـرن التاسـع عشـر كان المثقفـون المصريـون يستعملـون كلمات أخرى للدلالة على النضج العقلي، واتساع المعرفة، ورهافة الـذوق، كالأدب بمعناه الفني والأخلاقـي، والتربية التي تدل

www.alkottob.com

هـي الأخرى علـى تزويد العقـل بالعلوم والمعـارف، وتهذيـب النفس بـالحكمـة والمجاهـدة، وهذا ما نجـده في الرسالـة الرائدة التـي ألفها الشيـخ حسـين المرصفي في فجر النهضة المصريـة الحديثة، وسماها رسالـة (الكلـم الثمـان)، وعـرف فيهـا المصريـين بمـا كان يجـب أن يعرفـوه من مفردات النهضـة ومفاهيمها، فحدثهم عن الأمة، والوطن، والحكومة، والعدل، والظلم، والسياسة، والحرية، والتربية. وهذه الكلمة الأخيرة هي التي عبرت في رسالة المرصفي عن معنى الثقافة القومية التـي تفرزهـا حاجـة أفراد الأمة إلى أن يعيشـوا مجتمعين متضامنين. هذا المعنى الحديث للثقافة الذي يدل على عقلية جماعة من الجماعات البشريـة، ويجمع بين الخبرة والمعرفة النظريـة، وبين الإبداع الفردي والتقاليـد والعادات القومية، لا يزيد عمره علـى قرنين اثنين، والسبب ارتبـاط الثقافـة بالمجتمع، فقـد كانت الثقافة زراعـة في المجتمعات الريفيـة، وكانت صراعـا وعراكا في المجتمعـات البدوية، فلما ظهرت الأمم في العصـر الحديـث أصبحت الثقافة إبداعـا أدبيا وفنيا وفكريا، ونسيجا من العادات والتقاليد والنظم والقيم الأخلاقية والقوانين.

وقبل العصر الحديث كانت الأمة تعني الأصل، أو الجيل، أو الدين، أو السلالـة من الناس والحيوانات. أما في هذا العصر الحديث فالأمة هي الجماعـة القومية التـي ترتبط بالأرض، واللغـة، والتاريخ، والمصلحة المشتركـة، وتتجلى وحدتهـا في ثقافتهـا القومية، ودولتهـا الوطنية الحديثة.

والأمة لم تنبثق فجأة في العصر الحديث، ولكنها تشكلت على مهل من وحدات وجماعات صغيرة صهرتها التجارب والآمال والآلام التي مـرت بها عبر تاريخها، ووحدتها بالفعـل وبالوعي معا. فأفراد الأمة مشـدودون بعضهـم إلى بعض بمصالح، وأهـداف، وأفكار، وتصورات،

www.alkottob.com

وقيم، ومشاعر تجمع بينهم، وهكذا تكون ثقافة الأمة نتاجا لتاريخها، والعكس صحيح، فالتاريخ أيضا ثمرة للثقافة التي تشارك في صنعه. لأن الثقافة التي تكون في بداية أمرها خبرة متلبسة بالنشاط العملي، تستقل بنفسها حين تنضج، وتتمثل في أشكال من التفكير والتعبير خاصة بها، وتتحول في هذه الحالة إلى سلطة أخلاقية تفعل فعلها في التاريخ.

الثقافة القومية إذن هي روح الأمة. ومادامت الأمة هي الشكل الذي تطور إليه المجتمع البشري في العصر الحديث. فالثقافة القومية هي الشكل الذي تطور إليه الوعي البشري في العصر الحديث. والأمة التي تعيش في هذا العصر بثقافة الماضي الذي لم تكن فيه أمة بعد، أو تفرض على ثقافتها الحديثة دور التابع الذي كانت تلعبه في العصور الوسطي، أو تحبسها في نطاق تعجز فيه عن الحركة والتطلع والاستجابة لما يدور حولها هذه الأمة تخسر ثقافتها، وتخسر نفسها، وهذا ما تعرضت له الأمم التي وقعت في قبضة النظم الشمولية.

النظام الشمولي يصادر حقوق الأفراد بدعوى أنها تتعارض مع حقوق الجماعة التي سيصادرها هي الأخرى بحجة العمل على تقوية الدولة التي تمثل الأمة وتحمي مصالحها! والنظام الشمولي بهذه السياسة يدمر الأساس الذي قامت عليه الأمة، فالأمة في هذا العصر الحديث ليست قطعانا بشرية تخلت عن حرياتها لمن يطعمها من السادة أو يحميها كما كان الأمر في العصور القديمة، ولكنها جماعة من الأفراد الأحرار الذين اتفقوا فيما بينهم، وشكلوا جماعة قومية انعقدت إرادتها المشتركة على الحياة معا في ظل دولة تتولى حماية هذه الجماعة ورعاية مصالح أفرادها بواسطة أجهزتها ومؤسساتها المختلفة. وعلى هذا يكون انتماء الفرد للأمة تعاقدا

www.alkottob.com

حـرا يحقـق مصالـح الجماعة التي لا ينبغـي أن تجعلهـا الدولة مبررا للعـدوان على حقـوق الأفـراد، والتدخل في نشاطهـم، والحلول محلهم ومصـادرة حقهـم في التفكير والتعبـير، واستخدامهـم في الدفاع عن مصالحهـا الذاتية وفرضـ وجهات نظرها الخاصـة، كما حدث عندنا في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

لقـد قام عندنا في تلـك السنوات نظام جديد فرضـت عليه طبيعته العسكريـة وانتماءاتـه الطبقيـة والفكرية تصورا خاصـا للعلاقة التي يجـب أن تقـوم بينـه وبين الثقافة، وذلـك أنه اعتبر نفسـه وصيا على المصريـين جميعـا ينوب عنهـم، أو يحل محلهـم في ممارسة نشاطهم السياسـي والاقتصادي والثقافي. فهو الذي يرسم السياسات وينفذها، وهو الذي يمثل الأمة في إدارة المصانع والمصارف والشركات المؤممة، وهـو الذي يطبع الكتب، ويصدر المجـلات، ويراقب المطبوعات، وينتج الأفـلام والمسرحيـات، دون أن يلتـزم في هـذا كلـه إلا باعتبار واحد، هـو حاجته للولاء والأمن. ولهـذا احتكم إلى الفائدة الملموسة ولم يعبأ بالأفكار، وفضل الكم على الكيف، وميز بين الثقافة والمثقفين.

فالثقافـة خدمة أو سلعة يجب أن توفرها الدولة لعامة الناس، أما المثقفـون ففئة حالمـة مشاغبة لا تجتمـع على رأي، فلابـد أن تعامل بحـزم وقسوة، وفي ظل هـذه السياسـة تراجع الإبـداع الأدبي والفني والفكري وتحـول الموظفون إلى منتجين للثقافة، وتحول المثقفون إلى موظفـين وأصبـح النشاط الثقـافي مهرجانات وهذا هـو الوضع الذي يجب أن نعيد النظر فيه الآن..

لقد كانت الظروف المحلية والدولية في خمسينيات القرن العشرين وستينياتـه تغري بتجربة هذا النظام الـذي ظنت أمم كثيرة أنه سيقفز بهـا مـرة واحدة من الضعـف إلى القوة، ومن التخلـف إلى التقدم، لكن

www.alkottob.com

النتائـج كانت مخيفة، وقـد تكشفت لنا هذه النتائج كما تكشف لغيرنا فسقطت النظم الشمولية واحدا بعد آخر.

ولقـد عدنـا أو بدأنـا العـودة إلى التعدديـة الحزبيـة واقتصـاد السـوق، وبقـى أن نعيـد النظـر في علاقـة الدولـة بالنشـاط الثقـافي الـذي يجـب أن يخـرج مـن تبعيتـه للدولـة دون أن يفقـد رعايتهـا! لكن هذا الحديث لا يكتمل إلا بتوضيح لابد منه. ففي كلامي عن النتائج السلبيـة لسيطرة الدولـة على النشـاط الثقافي اكتفيـت بذكر الحقائق العامـة دون الخوض في التفاصيـل لأن التفاصيل كثـيرة ومعروفة. وأنـا لا أنقد مؤسسة بعينها أو مسئولا بالـذات، وإنما أنقد نظما حولت الثقافة إلى شيطان أخرس.

ولست أنكر ما قدمته الدولة للثقافة في السنوات الخمسين الماضية، لكن ما فائدة القفص الذهبي إذا كان البلبل قد كف عن الغناء؟!.

www.alkottob.com

أكاذيب تتغذى بأكاذيب!

كأن حوادث الحذف والمنع والملاحقة والمصادرة التي واجهها المثقفون المصريون في السنوات الأخيرة، كانت رغم فداحتها مناوشات لاختبار ردود الفعل التي يبدو أنها لم تخف خصومهم. والدليل على هذا أن ما كان نادرا من هذه الحوادث أصبح متواترا، وأن ردود الفعل فقدت حرارتها وقوتها، وأصبحت احتجاجات شكلية متهافتة يائسة، تشجع الفاعل الأثيم أكثر مما ترده وتردعه.

وهانحن نرى بلادنا التي كانت وطناً للإبداع وملاذا للحرية. هانحن نراها ولا يمر عليها يوم إلا ونسمع فيه عن مؤامرة أو مكيدة أو مذبحة جديدة يذهب ضحيتها كتاب أو فيلم أو مسرحية بحجة الدفاع عن العقائد الدينية والقيم الأخلاقية.

وأنا أريد أن أناقش هذه الحجة التي أعتقد أن وراءها كثيرا من سوء الفهم، وكثيراً من سوء النية وسأبدأ اليوم بسوء الفهم، لأني أعتقد أن ضحاياه هم الغالبية وأنهم مضلَّلون –بتشديد اللام وفتحها– أما المضلِّلون – بتشديد اللام وكسرها– فهم ذو النية السيئة!

ونحن لا نزال –للأسف– ننظر إلى الثقافة عامة، وإلى الفكر والفن

www.alkottob.com

خاصة بعيون القدماء، فنخاف من عقولنا، ونتطير مما يمكن أن تصل إليه مغامراتها في التأمل والتخيل والتفكير والتفسير.

وما ظنك بأمة من الناس يعتقد عامتها وخاصتها حتى اليوم، أن الشياطين تستطيع أن تركب ظهور البشر وأن تسوقهم سوق الحمير، وأن تؤاكلهم وتشاربهم، وقد تعاشر نساءهم معهم، كما أكد ذلك لقراء هذه الصحيفة رجل من رجال القانون.

وقد وجدت نفسي أضحك بسخرية وأنا أقرأ ما كتبه هذا السيد الذي احتاط لنفسه، فلم يزعم أنه رأى بعيني رأسه حادثة من هذا النوع، لكني فوجئت بعد ذلك بنساء يعترفن في تحقيق صحفي بأن الشياطين عاشرتهن معاشرة الرجال للنساء، فلم أملك إلا التصديق، وإلا فكيف يتيسر لي الإنكار؟!

فإذا كان الشيطان يستطيع أن يملك أجساد الناس على هذا النحو فهو أقدر على امتلاك عقولهم. ألم ينسب العرب ذهاب العقل إلى الجن، فسموه جنونا، وسموا الرجل الذي يفقد عقله مجنونا؟

ونحن نرى كل يوم ألف دليل على شكنا في جدارة العقل وخوفنا من أن نتبعه فنضل ونهلك. وليس الضلال في تصورنا إلا أن نتحرر من الخرافات التي لا تصدقها العقول، وإن ارتاحت لها النفوس الخامدة الخاملة، لأن الخرافة لا تكلفنا تفكيراً أو تفسيراً، فهي بطبيعتها فوق التفكير والتفسير، وإذن فليس لقدرتها نهاية، وليس لسلطانها حدود، من هنا نصدق الخرافة، ونمتثل لها بقدر ما نخاف من العقل ونرتاب فيه.

ولقد رأينا الأمم تعتز بأيامها، وتفخر بانتصاراتها، وربما ادعت لنفسها أمجاداً لا أصل لها ولا حقيقة، إلا نحن فقد استكثرنا على أنفسنا الانتصار الوحيد الذي حققه جنودنا الأبطال في حرب أكتوبر،

www.alkottob.com

فنسبناه للملائكة!

وفي الوقت الذي تشهد فيه عواصم الدنيا حركة فكرية وعلمية صاخبة تستكشف الكواكب الأخرى، وتتنبأ بعالم المستقبل، تمتلئ رفوف مكتباتنا وأرصفة شوارعنا بالمؤلفات التي تتحدث عن تسخير الجن، وكيف نميز بين شيطان ذكر وشيطان أنثى. وهو تمييز ضروري في هذه الأيام التي يتحرش فيها الشياطين الذكور بنساء البشر!

والعجيب أن يعتقد معظمنا أن الامتثال للخرافة لا يتناقض مع العقل، فالعقل بالنسبة للكثيرين مقياس عملي صرف، نميز به بين الربح والخسارة، وبين نشاط نافع ونشاط ضار، وبين كلمة تفتح لنا الأبواب وكلمة تغلقها في وجوهنا، دون أن يهمنا السؤال عن مصدر الربح، أو عن طبيعة النشاط الذي اخترناه، أو مدى إيماننا بالكلمة التي قلناها. هذا الربح نظيف أم قذر؟ وهذا النشاط الذي اخترناه مشروع أم غير مشروع؟ والكلمة التي قلناها كانت جدا أم هزلا، وحقا أم نفاقا؟ باختصار. نحن لا نفكر في الأسباب والنتائج أو الطبائع، والغايات، وهي المسائل التي يدور حولها التفكير الفلسفي والأخلاقي الذي نعتبره متاهات وترهات.

فإذا كانت هذه منزلة الفكر في حياتنا، فأحط منها منزلة الفن الذي يعتبره الكثيرون لهوا ولعبا، إن لم يعتبره فحشا ومجونا. وفي كل هذا نحن أسرى ما ورثناه من العصور الوسطى وأهلها التعساء الذين نتبعهم، ونرجع إليهم، ونردد خرافاتهم، ونظن أنهم أعلم منا وأحكم وهو ظن لا يستند إلا لعبادة الأسلاف.

ربما كان أسلافنا قد حققوا في بعض العصور انتصارات مرموقة جعلتهم أكثر طموحا وثقة بأنفسهم، غير أن معارفهم مهما كانت متقدمة في عصورهم، لا تعد شيئا إذا قيست بما نعرفه اليوم مع أن

www.alkottob.com

علاقتنا بالعلم ليست على ما يرام.

مشكلتنا مع العلم أننا ننقل ما تصل إليه أيدينا من نتائجه النظرية والعملية نقلا عن رواده في البلاد الأخرى الذين يملكون وحدهم طريقة الوصول إلى هذه النتائج، وهذه الطريقة هي المنهج العلمي. والمنهج العلمي ثمرة من ثمار الإيمان بالعقل. والإيمان بالعقل نتيجة منطقية للإيمان بالإنسان الذي يستطيع بحواسه وملكاته النفسية والعقلية أن يصل إلى الحقيقة، ويتأكد من وصوله إليها بالتجربة العملية. وإذن فسوف نظل مقلدين في العلم حتى ننهض نهضة حقيقية نسترد فيها إيماننا بالعقل وإيماننا بالإنسان.

وكذلك موقفنا من الفن. فالفن ليس لهواً ولعباً، وليس فحشاً أو مجوناً إلا عند الذين يعتقدون أن الفضيلة هي قتل النفس وتعذيب الجسد، والهرب من العالم، والاستعداد للموت القادم!

هؤلاء الذين يقتلون أنفسهم لا يطيقون أن يروا غيرهم خالقا مبدعاً، أو يروه مقبلا على الحياة، متفائلا بالصباح الجديد، يغني، ويرقص، ويلون، ويمثل.

الفن فرح بالحياة وإعادة خلق لها. كأن الشاعر وهو ينظم كلماته، أو المصور وهو يرسم لوحاته يمارس طقسا دينيا يتحد فيه بالعالم، ثم يعود فينفصل عنه. فلحظة الخلق التي لم يكتمل فيها العمل الفني هي لحظة الاتصال الحميمة وتليها لحظة الانفصال التي يكتمل فيها العمل، فيخرج الفنان من الانفعال إلى الوعي. إنها لحظة الإنارة كما يقال في لغة النقد. والتجربة التي يمر بها الفنان الخالق هي ذاتها التجربة التي يمر بها المتلقي فهو يدخل خلال العمل الفني في حوار مماثل مع العالم، يعاني فيه تجربة –الاتصال وتجربة الانفصال، ويخرج من الانفعال إلى الوعي، لكن هذا الفن الذي أتحدث عنه لا يروق

www.alkottob.com

معظمنا لأنه يحتاج إلى ثقافة وخبرة، ويقتضينا أن نعطيه من أنفسنا ما يعطينا من نفسه، ونحن كسالى، لا نريد أن نتعمق شيئا، بل يكفينا شئ يدغدغنا، أو يثير غرائزنا، أو يستدر دموعنا، وهذا هو الفن الذي نشجعه لتتحقق فيه فكرتنا عنه.

فن مبتذل رخيص يعطينا الدليل القاطع على أن الفن لعب ولهو، وفحش ومجون، فإذا دعا الداعي لمقاطعة هذا الفحش ومحاربة هذا المجون، فلن تتجه الطعنة للفن الرخيص، بل سيتجه إلى الإبداع الحقيقي، إلى روايات نجيب محفوظ وكتابات نصر حامد أبو زيد وأفلام يوسف شاهين وصور محمود سعيد.

هكذا نمارس حياتنا بما يتفق مع الخرافة التي صدقناها فلا نخرج منها أبدا، إذ نرى في حياتنا المتخلفة دليلا على صدق الخرافة، ونرى في الخرافة انعكاسا لما يدور في حياتنا. وبهذا تتغذى الأكاذيب بالأكاذيب.

فإذا كان لابد أن نستطرد لنعرف القوة التي ربطتنا في هذه الساقية الرهيبة، فلنعلم أنها الطغيان الذي يلوح لنا مرة بالسوط، ومرة بالخرافة، فهو يخيفنا، ويطمس على عقولنا، حتى لا نرى حقيقة ما نحن فيه، فنتمرد عليه.

ولكي يؤخر الطغاة هذا اليوم الذي يمكن أن نصحو فيه من رقادنا الطويل لنسترد حريتنا، ألبسوا الخرافة ثوب الدين، وساووا بين الفلسفة والزندقة، وبين الفن والمجون.

هل رأيتم كيف يستقتلون ليجعلوا من ختان البنات فريضة دينية؟

بالطبع، لا علاقة للدين بختان البنات. لكن الإقلاع عن ممارسة هذه العادة البربرية يوشك أن يكون انقلابا اجتماعيا تسترد فيه المرأة

www.alkottob.com

المصريــة حريتها وحقهــا في الاستمتاع الكامــل بالجنس، مثلها مثل الرجل ســواء بســواء. والاستمتاع بالجنس استمتاع بالحيــاة وإقبال عليهــا، وتمرد على آداب العبيــد التي تجعل المتعة الجنسية حقا للرجل وحده، أما المرأة فهي موضوع المتعة وليست شريكة فيها.

وكمــا يستقتلــون ليتمسكــوا بحقهم في ختــان البنــات، يستقتلون ليتمسكــوا بحقهــم في مصادرة الكتب والأفــلام والصور والمسرحيات التي تشجع الناس على إعادة اكتشاف أرواحهم وأجسادهم وما يحيط بهم من أشياء، ويعتمل في نفوسهم وعقولهم من مشاعر وأفكار.

www.alkottob.com

ليست مظاهرة عابرة !

أتمنى أن يواصل المثقفون المصريون دفاعهم المشروع عن حرية التفكير والإبداع، لأن حرية التفكير والإبداع شرط جوهري لوجودهم كمثقفين، ولأنها ركن من أركان الديمقراطية وحقوق الإنسان التي يجب على كل مصري أن يحرسها، ويثبت أركانها، ويعلى بنيانها. ولكني أتمنى في الوقت ذاته أن نكون موضوعيين، وألا نحول جهادنا في سبيل الحرية والديمقراطية إلى مظاهرة عابرة نلبي فيها حاجاتنا المكبوتة –للصياح والمشاغبة، مع العلم بأني لست ممن يترفعون على هذه الحاجة، بل أنا أفهمها وأتعاطف معها. فقد طالما انهال علينا الطغاة بسياطهم وابتلعنا الدموع، وداسونا بأحذيتهم وكتمنا الصرخات. وطالما استبد الطغاة بالرأي العام، واستأجروا المظاهرات ، وانفردوا بالمنابر، واشتروا الذمم والضمائر.

ولقد رأينا في الخمسينيات عمالا يهتفون في شوارع القاهرة بسقوط الديمقراطية لقاء ثمن بخس دراهم معدودة، ورأينا بعد الخمسينيات ردة ثقافية وسياسية شاملة.

وفي الماضي كان الحكام المستبدون وحدهم يتآمرون على

www.alkottob.com

الديمقراطيــة فتلجأ الديمقراطية للأمة، وتعتصـم بالبرلمان. وهـانحن قـد عشنا لنسمـع عن جامعات تضطهـد الفكر وتنفـي أصحابه خارج البلاد، وعـن أحزاب تتآمر على الديمقراطيــة، وبرلمانات تندد بحقوق الإنســان! ألا يحق لنا نحـن الكتاب والشعراء والمفكريـن أن ندافع عن الرأي، ونعارض خصومه، ونتظاهر ضدهم، ونشغب عليهم؟ بلى. ولكن دون أن نزيف الحقائق، أو نلجأ إلى الغوغاء، أو ننتهز الفرصة لاقتناص الغنائم أو تصفية الحسابات الشخصية.

ونحـن نعـرف جميعـاً أن القـرارات التـي اتخذهـا الأستـاذ فاروق حسنـي بسحب ثلاث روايات أصدرتها الهيئـة العامة لقصور الثقافة، مـن الأسواق لما تضمنته من عبارات عدهــا البعض عارية ومكشوفة، وإقالة المسئولين عن نشرها، هي السبب المباشر في اجتماع المثقفين المصريين واتفاقهم على استنكار هذه القرارات.

وليس من حق أحد أن يلوم المثقفين المصريين على ما فعلوه دفاعا عـن حرية التفكـير والتعبير، شريطـة، أن يتمثل المثقفـون المصريون هـذه الحريــة في صورتها الحقيقيــة، وفي حلقاتهــا المتتابعة القديمة والحديثة، وارتباطاتهــا بأوضاعنا السياسية والاجتماعية والثقافية، وألا يختزلـوا هـذه القضيــة الكبرى في حادثـة واحـدة، أو في قرارات اتخذهـا مسئول بالذات.

نحن لم نعرف حرية التفكير والتعبير إلا في لحظات خاطفة متقطعة مـن تاريخنــا الحديث، فإن نحـن أرسلنا النظر خلفنــا لنرى كيف كان حكامنا وأمراؤنا من أهـل البلاد ومن الغزاة الأغراب يعاملون الكتاب والشعراء والفلاسفة فلن نجد أثراً لهذه الحرية التي نتحدث عنها.

لقـد كانـت السياسـة في بلادنا مرتبطـة دائما بالديـن، كما كانت كذلـك خلال العصـور القديمــة والعصـور الوسطى في مختلـف البلاد

www.alkottob.com

والمجتمعات.

وكان الحاكم دائما مقدسا أو رأساً للمؤسسة الدينية، أو إماماً أو ممثلا للإمام، فكل من عارض الحكومة كافر، وكل من ناقش الكاهن مخرب وزنديق، ومن هنا لم يستطع صاحب رأي مخالف أو نبي جديد أن يجهر برأيه أو يدعو الناس لرسالته إلا إذا كان ملكا هو الآخر مثل أمحوتب الرابع "أخناتون" الذي دعا المصريين إلى التوحيد ، وبشرهم بديانة أتون، لكن المصريين مالبثوا بعد رحيله أن عادوا إلى ديانة أمون وهي ميراث آبائهم وأجدادهم، فإن جاء ذكر صاحب البدعة أخناتون لعنوه ورموه بالكفر والزندقة!.

والفكر الذي قمع في مصر الفرعونية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد قمع كذلك في مصر المسيحية في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد. وإليكم ما حدث للفيلسوفة المصرية هيباشيا، وكانت أستاذة في جامعة الإسكندرية القديمة، متفقهة في الأفلاطونية المحدثة، بارعة في الرياضيات، وقد ظلت هيباشيا وفية للفلسفة في الوقت الذي كان فيه المصريون يدخلون أفواجا في المسيحية التي تحولت إلى سلطة يقوم عليها في ذلك الوقت الأسقف كيرلس، وكان شديد التعصب، شديد القسوة، حرض الرهبان والدهماء على الفيلسوفة الشابة التي لم توهب رجاحة العقل فحسب، وإنما وهبها الله جمالا رائعا مع دماثة خلق ومهابة آسرة. وهكذا وقف القتلة بالمرصاد حتى مرت بهم في عربتها، فانتزعوها منها وسحبوها إلى كنيسة قيصرون، وراحوا يلهون بتجريدها من ملابسها –ليس المجون والفحش وقفا على فريق دون فريق! ثم جروها إلى الشارع ورموها بالحجارة، فلما أصبحت جثة هامدة مثلوا بها أشنع تمثيل!

والذي لقيته حرية الفكر في مصر الفرعونية ومصر المسيحية لقيته

www.alkottob.com

كذلك في مصر العربية الإسلامية، خاصة في ظل المماليك والأتراك العثمانيين الذين يأتم بهم الآن دعاة الإسلام السياسي فيحرضون أتباعهم على الكتاب والمفكرين والفنانين. وهل أذكركم بما حدث لفرج فودة، ونجيب محفوظ، ونصر حامد أبو زيد؟!

حرية التفكير والتعبير وجه من وجوه النهضة الإنسانية التي يحاربها الحكام المستبدون. كما يحاربها العوام المتعصبون الجاهلون؛ لأن التفكير الحر مغامرة في المجهول يكشف فيها الإنسان ما لم يكن يعرف أنه موجود ويداخله الشك في كثير مما كان يؤمن به ويسلم بوجوده.

والكشف الفكري الجديد لا يهز جانبا واحداً من جوانب النظام القائم ويترك الباقي على حاله، بل يهز كل شئ ويثير الشك فيه. حين أكتشف أن الحاكم الذي يحكمنا بشر مثلنا، وليس من نسل الآلهة كما زعم، وليس هو الذي يدفع عنا الصواعق ويكفينا شر المجاعات سأراجع كل ما أنشأه لتدعيم نظامه، طقوسه الدينية، ونظرياته السياسية، ومؤسساته الاقتصادية والاجتماعية. باختصار أهدم سلطانه وأنقض بنيانه، ومن هنا يقف الطغاة ضد حرية الفكر لأنهم أصحاب مصلحة في المحافظة على ما هو قائم، ويقف الغوغاء أيضا ضد حرية الفكر لأن رؤوسهم عامرة بالأشباح والخرافات، وهم يخشون إثارة هذه الأشباح وإغضابها إن أغراهم أحد بالشك فيها، ولهذا يكرهون التفكير ويكرهون التجديد ويتشبثون بما وجدوا آباءهم عليه. ومن هنا لا ينبغي بحال من الأحوال أن نجعل السلطة حكما فيما يصح أو لا يصح من أمور الفكر والإبداع، ولا يجوز أيضاً أن ننصب الرأي العام قاضيا في محكمة الرأي أو خبيرا في سوق الفن والكتابة.

لا يمتحن الرأي إلا أصحاب الرأي ولا يحكم على قيمة الإبداع إلا

www.alkottob.com

نقـاد الإبداع، فإن وجـد أحدهم الرأي سفيها فليسفهـه برأي آخر، وإن وجـد كتابا سخيفا فليكشف حقيقته بكتـاب مثله، أما المصادرة فهي جريمة. والجريمة لا تفيد!

وكما نختلف مع الأستاذ فاروق حسني في معالجته لمسألة الكتب المتهمة بالفحش، نختلف مع المثقفين المصريين الذين تصدوا للدفاع عـن حريـة الفكر، متجاهلـين خطورتها وجردوها مـن تاريخها، ومن علاقاتها المتصلة بالدولة والدين، وصبوا جام غضبهم كما يقال على فـاروق حسني وحده، فبدا بعضهـم وكأن إدراكه محدود، وبدا البعض الآخر وكأن شجاعته قليلة!

كلنا يعرف أن فاروق حسني لم يتخذ القرارات التي اتخذها إلا بعد أن علم بوجـود طلب إحاطة تقدم به ممثلو جماعات الإسلام السياسي في مجلس الشعب، يتهمون فيه وزارة الثقافـة بنشر الفحش والإنفاق عليـه من الخزانـة العامة، ويحملـون الوزير والحكومة كلهـا مسئولية ذلك. والفتنة التي أثارتها صحيفة "الشعب" ومحررها من أعضاء هذه الجماعات، حول رواية الكاتب السوري حيدر حيدر، والحوادث المؤسفة التي وقعت خلالها لا تزال ماثلة تبعث الخوف والقلق.

وفي الدستـور المصـري المعمـول بـه نصوص تفسرهـا جماعات الإسلام السياسي على هواها، وترتب على أساسها مطالب لو استجبنا لها لتحولت الدولة المصرية من دولة مدنية إلى دولة دينية لا تختلف عما نراه في إيران أو في السودان، أو في أفغانستان.

صحيـح أن الدستـور المصـري دستـور وضعـي سنـه المصريـون لينظمـوا به حياتهـم القومية، ويقيمـوا العدل بين افرادهـم، ويحفظوا للجميـع مصالحهـم وحرياتهـم وحقوقهم الماديـة والمعنوية بصرف النظـر عـن المذاهب والديـن. لكن هذا الدستـور ينص مع هـذا على أن

www.alkottob.com

الإسـلام هو دين الدولـة، وأن مبادئ الشريعـة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع.

وصحيح أن الدستور المصري ينص على أن حرية التفكير والتعبير والاعتقـاد مصونة، لكنه ينص كذلك علـى أن الآداب والقيم الأخلاقية مـن مقومات الأمة، ويـرى أن الحفاظ عليها واجب علـى الدولة وعلى المواطنين.

ومع أن قوانين الدولة لا تسمح بقيام الأحزاب السياسية على أسس دينيـة، فهي تسمح لأعضاء الجماعات الدينيـة المنحلة، بأن يخوضوا الانتخابـات، ويستتروا بعضوية الأحزاب الشرعية، ويتمكنوا بذلك من تمثيـل المواطنين في مجلس الشعب. وفي البرامج الدراسية، والإذاعات المسموعة والمرئية، والمساجد التابعة للدولة، وفي المراسم والشعارات الوطنية ما يدل على أن الإسلام بالنسبة للدولة ليس مجرد تراث روحي وانتمـاء ثقافي ترعاه الدولـة من خلال رعايتهـا للمؤمنين به، ولكنه التزام عملي تسعى لتطبيقه بصور مختلفة.

ولا شك أن طبيعة هذا الالتزام وحـدوده غامضة لدى الجميع، لكن هذا الغموض هو الذي يسمح لجماعات الإسلام السياسي بالضغط على الحكومـة، وتضليل الرأي العام، وتجنيد الشباب، وترويع المثقفين. هذا الغموض الذي تحميه قوانيننا الأساسية هو المسؤول عن رفع دعاوي الحسبـة، ونصب محاكم التفتيش في الجامعة، وتقديم طلبات الإحاطة في مجلس الشعب، ومنها الطلـب الذي دفع فاروق حسني إلى الإسراع بسحـب الروايات التي سحبها، وإقالة المسئولين عن نشرها في الهيئة العامـة لقصـور الثقافـة، حتى يفـوت الفرصـة على جماعـة الإسلام السياسـي ويحرمها من الفرصة التي سنحـت لإثارة فتنة جديدة. فإذا أردنـا أن نغلـق هـذا الباب، فعلينـا أن نفصل بكل حسـم ووضوح بين

www.alkottob.com

السياسة والدين.

أما فاروق حسني فنحن، نستطيع أن ننقده وننقد سواه من المسئولين إذا تراجعوا أمام ضغط الجماعات الدينية، لكن فاروق حسني ليس خصما لحرية التفكير والإبداع. خصمها الحقيقي هذا التيار المدمر الممثل في جماعات الإسلام السياسي ومن يتعاطفون معها في السر والعلن، وفي المعارضة والحكومة.

www.alkottob.com

الفرق شاسع بيننا وبينها!

فـرق شاسع بين ما كانت تصنعه بنيلـوب في الأسطورة اليونانية القديمة، وما نصنعه نحن في حياتنا الثقافية الآن.

وبنيلـوب هي زوجة عوليـس ملك ايتاكا، وأحـد أبطال اليونان في حرب طروادة التي خلدهـا الشاعر هوميروس في الإلياذة، والأوديسة. وكان باريـس ابـن ملك طروادة قـد خطف هيلين الجميلـة زوجة ملك إسبرطة، فشبت الحـرب، وظلت مشتعلة عشر سنوات، وانتهت بانتصار اليونان.

لكـن عوليس الذي أبحر مع رجاله عائدا إلى ايتاكا تعرض لأخطار جديـدة، وخاضـ تجارب قاسية قطعت عليه طريقـه مرة بعد مرة، فلم يتمكـن من العودة إلى بلاده إلا بعد عشريـن سنة أخرى. وهكذا امتدت غيبتـه سنـوات طويلـة كانـت خلالهـا بنيلـوب مثـالا للوفـاء والعفة والتضحيـة. فمـاذا فعلـت بنيلـوب لتصـرف الرجـال الذين قـدروا أن غيبـة زوجهـا الطويلة ربما أحلتها من رباطهـا المقدس، وأن ما تحس بـه من بـرودة الفراش وفعل الزمـن سيمكنهم في النهايـة من قلبها؟ كانـت تجلس إلى نولها تنسج، فيأتي الخطاب يخطبون ودها ويطلبون

www.alkottob.com

يدهـا، فتعدهم بالجواب حـين تكمل نسيجها، ثم يقبـل الليل، وقد كاد النسيـج يكتمـل فتنقضـه، ويأتي الخطـاب مـرة أخـرى يستنجزونها وعدها، فيجدونها لا تزال تعمل في نسيجها الذي لم يكتمل، فينصرفون خائبين.

والسـاذج وحده هو الذي يظـن أننا نصنع في حياتنـا الثقافية ما صنعتـه بنيلوب في الأسطورة، لأننا نثبت بيد، ونمحو بأخرى، ونتقدم خطـوة ونتقهقـر خطوتـين، وننقـض بالليـل مـا نسجنـاه في النهار. لكـن شتـان بين مـا كانـت تصنعه بنيلـوب، ومـا نصنعه نحـن الآن! خـذ مثلا ما تقوم به وزارة الثقافة في مجـال النشر، وتشجيع القراءة، واحتضـان الأجيـال الجديـدة مـن الكتـاب والشعـراء، ودعـم الكتاب، وتنويع مصـادر المعرفة، وتوثيق الصلة بـين ماضينا وحاضرنا عن طريق تحقيق التراث المكتوب ونشره، وبين ثقافتنا والثقافات الأخرى عن طريق الترجمة.

سنجـد في هـذا المجـال نشاطـا لا يستطيـع أحـد إنـكاره. صحيـح أن هذا النشاط ليس كافيـا إذا قيس بما يجب أن يكون، أو بما نستطيـع أن نصـل إليه، لكنه خطـوة متقدمة بالقياس لمـا كان لدينا قبـل بضـع سنوات. ولا أريـد أن أستطرد كثيرا في هـذه النقطة حتى لا أخـرج مـن المقارنة بيننا وبـين بنيلوب إلى المقارنة بـين ما كنا فيه ومـا صرنا إليه، وبين وضعنا الراهن ووضعنا كما يجب أن يكون، مع أن هذه الأطراف كلها متداخلة متصلة.

ويكفـي في الدلالـة على عـدم كفاية نشاطنـا الراهـن أن أقول إننا لا نملـك فيـه أي إحصائيات دقيقـة، وأن ما لدينـا إحصائيات مجملة تتضمـن الموجـود في السـوق ممـا صـدر في عـدة سنـوات لا في سنة بالـذات، كنا نجد مثلا في دليل الكتـاب المصري لعام١٩٧٩ أن جملة

www.alkottob.com

الإصدارات المؤلفة والمترجمة في جميع التخصصات تبلغ خمسة عشر ألفا وأربعمائة وسبعة وعشرين كتابا صدرت بين أواخر الخمسينيات وأواخر السبعينيات، أي في عشرين سنة. ومعنى هذا أن متوسط ما نصدره في العام سبعمائة وخمسة وسبعون كتابا. ولا شك في أن هذا المتوسط قد زاد في السنوات العشرين الأخيرة. فلنقل انه قد تضاعف فأصبح نحو ألف وأربعمائة كتاب نصدرها في العام، بعد أن بلغ تعدادنا نحو سبعين مليونا. ومعنى هذا أن نصيب كل مليون مصري من الكتب لا يزيد على عشرين كتابا، في الوقت الذي يصدر فيه الإسرائيليون أكثر من خمسة آلاف كتاب في السنة. ويبلغ تعداد الإسرائيليين الآن نحو خمسة ملايين. فيكون نصيب كل مليون إسرائيلي ألف كتاب في العام. والفرق بين ما نصدره وما يصدرونه ليس فرقا كميا فحسب، وإنما هو فرق نوعي وكيفي أيضا.

نحن لا نملك إحصائيات دقيقة كما قلت. ومعنى هذا أننا نتحرك في الغالب الأعم في نشاطنا الثقافي معصوبي العيون، وأن معظم ما يصدر عندنا من الكتب يصدر دون خطة نضعها ونسهر على تنفيذها. ودون تحديد لما نرغب في تشجيعه ونسعى لاستكماله. ودون موازنة بين حاجاتنا من العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية النظرية والتطبيقية من ناحية، وبين ما يمكن أن نؤلفه وما يجب أن نترجمه من ناحية أخرى. ونحن لا نقيس معدلات القراءة، ولا اتجاهاتها كما يفعل الآخرون، إذ لا تخلو صحيفة أوروبية أو غير أوروبية على مدار السنة من بيان بالكتب الأكثر رواجا. أما في معارض الكتب وفي المناسبات المماثلة فهي تزود قراءها بإحصاءات دقيقة عن عدد القراء وفئاتهم، وما تخصصه كل فئة للقراءة من وقتها ومالها، وما يقتنيه كل مواطن في مكتبته الخاصة. وقد جاء في إحصائية صدرت في إسرائيل منذ أربع

www.alkottob.com

سنـوات أن خمسين في المائة من الإسرائيليين يقرأون كتابا كل شهر، وعشريـن في المائة منهم يقرأون كتابا كل عام، أما الباقون ونسبتهم ثلاثون بالمائة فلا يقرأون. وبحسبة بسيطة يتبين لنا أن الإسرائيليين يقرأون في العام أكثر من عشرين مليون كتاب.

وليس هـذا أهم ما في الموضـوع. فأهم ما فيه أنهـم يتمكنون من توجيه حركة النشر وتشجيعها وترشيدها ووضعها في خدمة أهدافهم، دون تسلـط أو إكـراه. أما عندنا فالشكل الوحيـد أو المفضل من أشكال التوجيـه هو الرقابـة الدينية والأخلاقية التي تتميـز بالتزمت الشديد، وتصل في بعض الأحيان إلى حد المصادرة.

لكني لم أستطرد هـذا الاستطراد لأتوقف عند هذه النهاية المحزنة، بل لأقول إننا نجحنا خلال السنوات الأخيرة في إثارة قدر من الحيوية في حركـة النشر، وفي محاولـة ترشيدها، وتطعيمهـا بالفكر العقلاني والعلمـي، والـروح النقديـة، ووجهـات النظـر المخالفـة، والاتجاهات العصريـة، فضـلا عما حققنـاه من نجـاح في تمكين أصحـاب الدخل المحدود من الوصول إلى هذه الإصدارات بيسر وانتظام.

وأنا أذكر هنا الجهود الموفقة التي قامت بها هيئة الكتاب وتمثلت في سلسلة التنوير التي أحيت تراث النهضة المصرية الحديثة، فظهرت فيهـا مؤلفـات الطهطاوي، ومحمـد عبده، وقاسم أمـين، وفرح أنطون، وطـه حسـين، وسلامة موسـى، وعلي عبـد الرازق وغيرهـم، ثم تمثلت في مشـروع مكتبـة الأسرة وما ظهر فيها من أعمـال إبداعية، وأعمال فكريـة، وموسوعـات مؤلفة ومترجمـة لم تتوافر بهـذه الكميات وهذه الأسعـار من قبل. ويكفي أن نعرف مثلا أن المجلد الواحد من موسوعة قصة الحضارة لـول ديورانت وهي من أمتع المراجع الحديثة وأوفاها في تاريـخ الأفكار والنظـم، والجهد الذي بذلـه مترجموها المصريون:

www.alkottob.com

زكـي نجيب محمود، ومحمـد بدران، وعبد الحميـد يونس، ومحمد علي أبـو درة، وفؤاد اندراوس لا يقل أهمية عن الجهـد الملحمي الذي بذله مؤلفهـا، أقـول يكفـي أن نعرف أن المجلـد الواحد من هـذه الموسوعة المؤلفـة مـن اثنين وعشرين مجلـدا يباع بسبعة جنيهـات، وهو الثمن الذي يدفعه القارئ الأجنبي في أي صحيفة يومية. وقد أكد لي الدكتور سمـير سرحان أن الكتب التي صـدرت عن مكتبة الأسرة خلال الأعوام الثمانيـة الماضية تزيـد على ثلاثة آلاف كتـاب، وأن النسخ المطبوعة منهـا تزيـد على أربعين مليـون نسخة، وأن الإقبال الـذي لقيته بعض الكتـب الصـادرة في هـذه السلسلـة أدى بالهيئـة إلى إعـادة طبعهـا مـرات متوالية، كما حـدث في كتاب "شخصية مصـر" لجمال حمدان. فإذا كانت هيئة الكتاب قد أصدرت سلسلة التنوير والمواجهة، ومكتبة الأسـرة، وقصة الحضارة، ووصـف مصر، والطبقـات الكبرى، ومصر القديمة، وسواها من السلاسل والموسوعات لتواجه بها ثقافة العصور المظلمـة، ولتنشئ نخبة جديـدة تحل محل النخبة التـي انقرضت، فقد شـارك المجلس الأعلى للثقافة في هذه اليقظـة بمشروعه الذي أسماه (المشروع القومـي للترجمـة)، لأن الترجمـة هـي سبيلنـا للاتصـال بالعـالم، وعدم الانقطاع عن العصر، وهـدم أسوار العزلة التي ضربها المتخلفون حولنا لينفردوا بأجيالنا الجديدة ويلقنوها ثقافة التعصب والتخلف والعنف.

المشروع القومي للترجمة إحياء للنشـاط الذي تبناه أعضاء لجنة التأليـف والترجمـة وفي مقدمتهم أحمد أمين، ولمشروع الألف كتاب الـذي تبناه طه حسـين في الخمسينيـات والستينيـات، فالترجمة هي سبيلنا الوحيد لإيجاد ثقافة عربية عصرية.

وقـد تراجعت الترجمة في العقود الثلاثـة الأخيرة بقدر ما انتشرت

www.alkottob.com

ثقافـة التخلـف وارتفعت شعاراتـه، فهل يكون المشروع الذي يشرف عليه جابر عصفور في المجلس الأعلى للثقافة بداية مرحلة جديدة من مراحـل نهضتنا نتغلب فيها على العـثرات، ونستأنف العمل الذي بدأه الطهطاوي، وطه حسين، وأحمد أمين، ونمسك بزمام المبادرة من جديد؟ لا أريـد أن أقول إن هذه المشروعات بريئة من كل عيب. فالحقيقة أنها لا تخلـو من أخطاء ومجاملات. ولا أقول إنها دليلٌ على ازدهار ثقافي متحقـق، ولكنها تستطيع أن تكون خطوة في الطريق إلى هذا الازدهار، لـو واصلنـا التقدم، وتغلبنـا على العقبـات. لكننا وا أسفـاه! نبني بيد ونهدم بالأخـرى. ففي إحصائية نشرتها دار الكتب المصرية أن ثلاثة آلاف كتاب من كتب الدجل والشعوذة صدرت في عام ١٩٩٤، وفي ندوة عقـدت أخيرا في المسرح الصغير بـدار الأوبرا عن المسلسل التليفزيوني قاسم أمين، وشاركت فيها مع نخبة من المتحدثين أعلن الدكتور سمير سرحان أن عشرات من الدكاكين في الأحياء الشعبية في القاهرة وفي المـدن الأخرى تحولت إلى مطابع تنتج مئات الآلاف من كتب الشعوذة والخرافة، ومنها العلاج بالأرواح، والطب الروحاني، والرضا لمن يرضى! وبوسعي أن أقدم أمثلة أخرى من كراسات ودفاتر بحجم الكف تعرض بكميـات مهولة على أرصفـة الشوارع والميادين العامـة منها التبرج وخطـر مشاركة المرأة للرجل في ميدان عمله للسعودي بن باز، وعلاج المسحـور والتحصين ضد الشياطين، والحسد والسحر والصرع والعين، فضـلا عن الكتـب التي تتحدث عـن حكم الإسـلام في زواج الإنس من الجـن، وعن كتـب زعم فيهـا مؤلفـون لا يعرفـون اللغة العربيـة التي كتبـوا بهـا أنهم أفلحوا فيمـا لم يفلح فيه الأطبـاء، وأخرجوا الجن من أجسـاد النسـاء، وسجلوا حـوارا ساخنا بين جن مسلم وجـن مسيحي! هؤلاء المشعوذون لا يتعرض لهم أحد، ولا يصادر خرافاتهم الذين صادروا

www.alkottob.com

مؤلفات المستشار سعيد العشماوي، ولا يهتف ضدهم الذين هتفوا ضد نجيب محفوظ، ولا يستجوب بشأنهم فاروق حسني في مجلس الشعب، فلابد أن وراءهم قوى تحميهم، وتهدم ما تبنيه مؤسسات وزارة الثقافة، بل إن هذه المؤسسات نفسها لا تخلو من ممثلين لهذه القوى الشريرة! والساذج وحده هو الذي يظن أننا نصنع ما كانت تصنعه بنيلوب. وشتان بين صنيعها وصنيعنا. لقد كانت تنقض نسيجها حتى تحتفظ بطهرها وتظل وفية لزوجها الغائب. أما نحن فإننا نضحي بالعقل تقربا للخرافة. ونغتال مستقبل أطفالنا لنستدعي العفاريت!

www.alkottob.com

الطغاة والغزاة

بـين الفيلسـوف اليونـاني سقـراط والفيلسوف الفرنسـي جان بول سارتـر أربعة وعشرون قرنا، كان على البشرية أن تقطعها مرحلة بعد مرحلة، وعصرا بعد عصر، حتى تتحرر الثقافة من تبعيتها لأي سلطة سياسية، وحتى تصبح هي نفسها سلطة مستقلة تجسد القيم الإنسانية الرفيعة، والمثل الأخلاقية العليا، وتسهر على حمايتها، وإذكاء الشعور بها في الفرد، والجماعة وفي البشرية جمعاء.

وسقـراط لم يكن تابعا لحكومـة أثينا، لأنه كان فيلسوفا يبحث عن الحـق، ويسعى لبلوغ الحكمـة والفضيلة، وحكومـة أثينا في عصره لم تكـن في حاجـة لفلاسفة من أمثالـه، لأنها كانت حكومـة ديمقراطية تعتمـد على الجمهور الـذي اختارها، وتحاول أن ترضيـه وتكسبه إلى جانبهـا، ولهـذا لم يقبـل أنصارهـا مـن سقـراط أن يناقش معتقدات الاثينيـين، ويسخـر مما فيهـا من خرافـات، فاتهموه بإفسـاد الشباب والعيـب في آلهـة أثينـا، وقدموه للمحاكمـة أمام قضـاة لا علاقة لهم بالفلسفـة، فحكموا عليه بالموت، واختار هـو أن يموت بالسم، ورفض أن يهرب من سجنه حين أتيح له الهروب، حتى لا يقال إن سقراط الذي

www.alkottob.com

كان يدعو الناس للفضيلة جبن أمام الموت، وخرج على القانون!

وإذا كانت الديمقراطية الوليدة في أثينا قد ناصبت سقراط العداء، لأن السياسيين المحترفين يستطيعون أن ينافقوا الجماهير البسيطة ويضللوها ويؤلبوها على المفكرين الأحرار، فالملوك المستبدون لم يكونوا أرفق بالثقافة أو أكثر إنصافا، بل كانوا أعنف وأظلم، لأن الديمقراطية تصحح أخطاء الديمقراطية، أما الطغيان فلا يصححه شيء لأنه يفسد كل شيء، حتى العقل، وحتى الضمير، ولأن الطغاة المستبدين يملكون كل شيء، ويحتكرون كل شيء، ويتحكمون في مصائر البلاد والعباد، فليس يأمن أحد على حياته أو رزقه إلا إذا عاش في ظل الطاغية، وسبح بحمده، واحتمي به، ودان له ولقبيلته ووزرائه وخفرائه بالولاء التام، ولا يستطيع عالم أو شاعر أو فنان أن ينصرف لعمله، أو يواصل إبداعه إلا إذا سخر مواهبه في خدمة هؤلاء المستبدين، ورفع أعلامهم، والإشادة بسخائهم، وحكمتهم، وشجاعتهم، وإلا فمصيره الجوع إذا سكت، والموت إذا نطق!.

هكذا رأينا الشعراء والعلماء والفقهاء والفنانين ينافقون الحكام ويجعلونهم آلهة وأبناء آلهة، فالفراعنة أبناء رع، والإسكندر ابن زيوس في اليونان، وابن آمون في مصر، ومشيئة الخليفة المعز فوق مشيئة القدر في القصيدة التي بدأها الشاعر المداح بقوله:

ما شئت، لا ما شاءت الأقدار.

فاحكم، فأنت الواحد القهار!

والمتنبي نفسه، وهو العبقري خالد الذكر العارف قدر نفسه، تهون عليه نفسه، فيجعل الملوك جنسا، والشعراء جنسا أدنى، وذلك في قوله:

وفؤادي من الملوك، وإن كان لساني يري من الشعراء!

www.alkottob.com

لكـن الحريـة فطـرة فطرنـا الله عليهـا، ولهـذا كان مـن المثقفـين القدمـاء مـن كـره هـذا النفـاق، وأبـى أن يسقـط فيـه، فلقـى المصير الـذي لقيـه سقـراط، ولقيـه آخـرون في مختلـف العصـور، لا عصـور الانحطـاط والهمجيـة فحسب، بل عصـور الحضارة والازدهـار أيضا. ونحن نعرف أن الملوك البطالمة الأوائل قرروا أن يجعلوا من الإسكندرية عاصمـة للعالم الهلليني كله، وأن ينشئوا فيها من المؤسسات الثقافية ما تستطيع به أن تنافس أثينا وتتفوق عليها، فأنشأوا المكتبة والمجمع العلمي الذي ترعاه الموسايات، أي ربات الفنون ولهذا سمي الموسيون، وكان أعضاؤه من العلماء والأدباء والباحثين يقيمون فيه، ويمارسون نشاطهم، ويحيون حياة مشتركة كحيـاة الرهبان المنقطعين للعبادة، في ظـل الملوك البطالمة الذين كانوا ينفقون على الموسيون وأعضائه، ويعفونهم مـن الضرائب، ويوفرون لهم الطعـام المجاني، على نحو ما كان حكام القاهـرة وأغنياؤها يفعلون مع علماء الأزهر وطلاب العلم فيه خلال العصور الأخيرة.

لكـن هذه الرعاية التي كان يحظى بهـا الموسيون وأعضاؤه كانت مشروطة بولائهم لأصحاب السلطـان والتزامهم بما يرسمه هؤلاء من سياسـة، ومـا يعتنقونه من عقائـد وآراء، فإن خرجـوا عليها تعرضوا لمـا تعرض لـه ديمتريوس الفالـيري وزميلاه سوتـاديـس، وزويلوس. وكان ديمتريوس صديقـا لبطليموس الأول سوتير المنقـذ الذي سأله رأيـه فيمن يختاره وليـا لعهده من أبنائه مـن زوجتيه، ومن المؤسف أن اختيار ديمتريوس وقع على غير الابن الذي خلف أباه بالفعل، وهو بطليموس الثاني فيلادلفوس الذي لم يغفر لديمتريوس ما حدث، فقبض عليه وأبعده إلى بوصير حيث مات.

أما سوتاديس فكان خطؤه أفدح لأنه اتخذ من زواج فيلادلفوس من

www.alkottob.com

شقيقته أرسنوي مادة للسخرية والحط من شأن الأسرة المالكة فسجن ثم أعدم ومع أن زويلوس تجنب نقد الحكام وشن حملاته النقدية على الشاعر هوميروس دون سواه فقد تعرض للمقاطعة حتى لم يعد يجد ما يسد به رمقه ومات جوعا!

والذي حدث لهؤلاء في أثينا والإسكندرية حدث لأمثالهم في البصرة، وبغداد وحلب، وقرطبة، فقد مزقت أطراف الكاتب عبد الله بن المقفع وألقى بها للنار وهو مازال حيا، على يد أحد الأمراء العباسيين في البصرة، وأعدم بشار بن برد بعد أن اتهم بالزندقة على يد الخليفة المهدي في بغداد، وصلب الحسين بن منصور الحلاج بعد أن قطعت أطرافه لأنه طلب الشهادة ولم يكتف بالعبادة، وقتل السهروردي شهاب الدين يحيي في قلعة حلب على يد صلاح الدين الأيوبي بتحريض من بعض الفقهاء الذين لم يستطيعوا أن يفهموا كلامه المتوقد عن الله نور الأنوار الذي يتجلى لمن يعرفونه في عالمهم الرهيف حيث تتعدد مرايا العقول والأرواح.

ولو أن جان بول سارتر كان مواطنا في مدينة من هذه المدن وعصر من تلك العصور لكان مصيره مصير سقراط أو ابن المقفع، وربما كان أفظع وأشنع، لأن سارتر لم يكتف بأن يناقش كل شيء ويعلن رأيه الصريح في الفكر والعمل، وفي الفن والأخلاق، والسياسة والدين، وإنما تجاوز ذلك للوقوف في وجه الرئيس الفرنسي شارل ديجول عام١٩٦٨ مع الذين وقفوا في وجهه، وهددوا نظامه لأنهم كانوا يطلبون المزيد من الحرية والمزيد من العدالة وديجول بطل من أبطال المقاومة الفرنسية خلال الاحتلال النازي، وربما كان أهم رئيس فرنسي في القرن العشرين، لكن سارتر كان مفكرا ثوريا أشعل حماسة المعارضين لديجول من الطلاب والعمال الثائرين حتى فكرت

www.alkottob.com

الحكومة الفرنسية في اعتقاله فرفض ديجول بشدة، وأطلق صيحته التي حفظها له التاريخ، إن فرنسا لن تعتقل فولتير!

وقد أراد الجنرال ديجول أن يقول في هذه العبارة إن فرنسا الجمهورية التي ثارت على طغيان الملك والنبلاء ورجال الكنيسة عام ١٧٨٩ وأصبحت الأمة فيها مصدر كل السلطات، مدينة لفولتير وسواه من المفكرين الأحرار فيها الذين قدسوا العقل وأسسوا للديمقراطية وأعلنوا حقوق الإنسان هؤلاء لا يمكن لفرنسا أن تعتقلهم وإذن فهي لا تعتقل ورثتهم من أصحاب الرأي مهما يكن عنف معارضتهم للسلطة الحاكمة!

فإذا كان من حق سارتر أن يعارض ديجول الذي وصل إلى السلطة عن طريق الانتخاب الحر، وإذا كان من حق الشعراء الأمريكيين أن يعارضوا سياسة بوش، ويندوا بحربه التي أشعلها في العراق، وإذا كان من حق الكتاب الإنجليز والأسبان والإيطاليين أن يسخروا من رؤساء حكوماتهم ويكشفوا عن تبعيتهم لسادتهم الأمريكيين وعن خراب ذممهم وقبح وجوههم فهل يحق لمثقف عربي أن يعارض حكام بلاده الذين نعرف جميعا كيف يقفزون إلى السلطة وكيف يبقون فيها، وإذا سولت لمثقف عربي نفسه أن يمارس حقوقه ويؤدي واجباته الأخلاقية كما يفعل زملاؤه في البلاد الديموقراطية فماذا يكون مصيره؟ ولماذا عجزنا عن أن نقطع المسافة التي قطعتها البشرية المتقدمة من سقراط إلى جان بول سارتر؟ المثقف حارس قيم يدافع عن الحرية في بلاده وفي غير بلاده، ويفتح للبشر جميعا طرق المستقبل ويكشف لهم عن صور الحق والخير والجمال في النفس وفي الطبيعة وفي المجتمع.. فإذا تقاعس مرة أو خاف أو خان قيمة من القيم أو تخلى عن أداء واجب واحد فقد مكانه

www.alkottob.com

وصفته وعجز عن أداء أي واجب أخلاقي، وتحول إلى مجرد أجير.

والمثقف الـذي يتخلف عن مصارعة الطغـاة يتخلف عن مصارعة الغزاة، ولا يعرف أمامهم مـاذا يفعل، ولا يدري مـاذا يقول.

هكـذا نستطيع أن نفسر تردد المثقفين العـرب في مواجهة العدوان الأمريكي على العراق، وهكذا نستطيع أن نفهم عجزهم عن فهم الاستعمار الصهيوني لفلسطين وعن تصحيح مسار المقاومة الفلسطينية.. لقد فقد المثقف العربي زمام المبادرة في مواجهة العدوان الأجنبي، لأنه تخلى منذ زمن طويل عن مواجهة الطغيان المحلي.

www.alkottob.com

إنه مأزقنا جميعا!

تابعت حركة المثقفين العرب في مواجهة الاستعداد الأمريكي المحموم لضرب العراق واحتلال أراضيه، وسمعت عما قادوه من مظاهرات، وما نظموه من اعتصامات، وقرأت ما أصدروه من بيانات، ووقعت أنا شخصيا مع الموقعين على بعضها، وخرجت من كل هذا بانطباع أريد أن أصوره في هذه المقالة، وأختبر معكم صحته، وأتبين الأسباب التي تسم حركة المثقفين العرب بالعجز، وتضعهم في هذا المأزق الذي كشف عنه الاستعداد الأمريكي لضرب العراق. لقد استيقظ المثقفون العرب على الخطر الذي يتهدد بلادهم متأخرين عن غيرهم من المثقفين وغير المثقفين الأجانب الذين أدركوا على الفور معنى الحملة الأمريكية، وبادروا إلى رفضها والتنديد بها، ولا يزالون يفعلون برغم البعد النسبي للخطر عنهم وعن بلادهم. والمثقفون العرب مع ضعف استجابتهم، وبطء حركتهم، وعجزهم عن المبادرة والفعل منقسمون على أنفسهم حول الموقف الذي يجب أن يتخذوه إزاء هذه الضربة المتوقعة، وحول الأسلوب الذي يقترحونه لحل الأزمة القائمة. وهم بسبب هذا كله معزولون عن القوى التي تناهض

www.alkottob.com

العدوان الأمريكي المتوقع سواء في الخارج أو في الداخل، وتحاول إيقافه. المثقفون العرب معزولون عن المثقفين الأجانب، لأنهم أو كثيرين منهم يبالغون في تقدير خصوصيتهم، ويعتقدون أن لهم هوية خاصة تباعد بينهم وبين كل البشر، فالسمات القومية عندهم سدود وقيود تحول بين الإنسان والإنسان بدلا من أن تكون تجليات مختلفة لحقيقة واحدة، وطرقا تتعدد لتلتقي وتحرر الإنسان من الفقر الروحي والعزلة والانغلاق، وتكشف له العالم الخارجي، وتمكنه من الاتصال بالآخرين وفهمهم وإدراك ما يربط بينهم من آمال وآلام وأحلام ومخاوف ومسرات.

وأنا لا أجد في أي بلد من بلاد العالم هذا الاستغراق المرضي في عبادة الذات وتمجيدها، وتعداد سجاياها وهي غالبا وهمية وتنزيهها عن الخطأ، كما أجد عندنا. ولا أجد من ناحية أخرى غموضا يكتنف تصور أمة لنفسها كما أجد هذا الغموض في الثقافة العربية. وأمة ترى نفسها في الماضي أكثر مما ترى نفسها في الحاضر، وفي الوهم أكثر مما في الخيال، وفي الصراع مع الآخرين أكثر مما في الوفاق معهم، هذه الأمة تعزل نفسها عن العصر وعن أهله وعن أسئلته وقوانينه، ولا تستطيع أن تكون مع الآخرين في قضاياهم العادلة، وتعجز عن إقناعهم بعدالة قضاياها، بل هي تتأخر حتى في الدفاع عن نفسها. وقد يسبقها الآخرون في ذلك، ويتولون الدفاع عنها وهي ساكتة ساكنة سادرة في صمتها ولا مبالاتها، لأنهم تربوا في ثقافات ومجتمعات تؤمن بأن الإنسان واحد، فحقوقه واحدة، والمعايير التي يجب الاحتكام لها في العالم كله واحدة كذلك.

لقد كان يجب علينا نحن العرب أن نقف في وجه المذابح التي راح ضحيتها مليون من الرجال والنساء والأطفال في رواندا، كما وقف

www.alkottob.com

في وجههـا ملايـين البشر في العالم، وكما يقفـون الآن في وجه بوش وأعوانـه الذين يسعـون لتكرار هذه المذابح في العـراق، لكننا لم نفعل. وأقرب من ذلك وأوجب أن نقف في وجه السياسات العرقية والأساليب الوحشية التي اتبعتها بعض النظم العربية مع بعض الأقليات القومية، لكننـا لم نفعل أيضـا، لأن ثقافتنا لم تتخلص تماما مـن آثار العصور الوسطـي، ولأن معلوماتنـا في معظم الأحوال ناقصـة أو مخلوطة بما يضللنا ويمنعنا من رؤية الحقائق الموضوعية، واتخاذ الموقف الصحيح، فضلا عن سبب آخر لا يقل أهمية، وهو افتقار الحركة الثقافية العربية للتنظيـم الديمقراطـي المستقل القادر علـى تمثيلهـا وتوجيهها، سواء في المجـال الثقـافي أو في المجالات الأخـرى السياسية والاجتماعية. وكمـا يجـد المثقفـون العـرب أنفسهم معزولـين عن العـالم الخارجي، يجدون أنفسهم معزولين بين ذويهم في داخل بلادهم، وهذا ما كشفت عنه حركتهم في مواجهة العدوان الامريكي المتوقع على العراق.

المثقفـون العـرب معزولـون عـن الجماهـير عزلتهم عـن السلطات الحاكمـة. فالجماهـير العربيـة تتحـرك الآن إن تحركـت بتأثـيرات عاطفيـة ومشاعـر مكبوتة لا يحكمها فكـر سياسي ناضـج، أو أهداف محـددة، أو منطق مفهـوم. والسلطات العربية الحاكمـة لها حساباتها العمليـة، وصراعاتهـا الإقليميـة، وسياساتهـا المعلنـة وإيعازاتهـا الخفيـة. والمثقفـون العـرب وإن تمسحـوا بهذا الجانب مـرة وبالجانب الآخـر مرتـين لا يحسبـون في السلطـة، ولا يحسبـون في الجماهـير. ومـن الطبيعي أن يكون موقف المثقف العربـي إزاء الضربة الأمريكية المتوقعـة هـو رفضهـا وإدانتهـا. والحيلولـة بـين الأمريـكان، وأن ينجحـوا في الحصـول علـى مـا يسعـون للحصـول عليـه مـن تأييـد عالمـي يـبرر لهـم توجيهها بالفعـل، فهذا هـو واجب المثقـف العربي

www.alkottob.com

بوصفه مواطنا عربيا، وهو واجبه أيضا بوصفه مثقفا. لأن الضربة الأمريكية المتوقعة عدوان صارخ على كل القيم الأخلاقية التي يجب على المثقفين أن يدافعوا عنها مهما تكن انتماءاتهم الوطنية. وقد رأينا كيف يقف الآن العشرات والمئات من مثقفي العالم ضد هذه الحرب المتوقعة، وكيف يدينون الولايات المتحدة، ويحذرون بلادهم وزعماءهم من الانسياق وراء سياساتها الشريرة. روائيون، وكتاب مسرح، وشعراء، ومغنون من بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وأسبانيا، ومن الولايات المتحدة ذاتها يكتبون ضد الحرب، ويغنون للسلام، ويقفون متراصين في مقدمة المظاهرات الحاشدة التي انتظم فيها البشر بالملايين ينددون بالسياسة الأمريكية، ويرفعون أصواتهم ضد الزعماء الأمريكيين وأطماعهم في الشرق الأوسط وفي العالم. وفي ظني أن مبادرات المثقفين الأوروبيين والأمريكيين من أمثال الكاتب المسرحي البريطاني هارولد بنتر، والروائي الأسباني خافيير ماريأس، والشاعر الأمريكي سام هاميل في ظني أن مبادرات هؤلاء هي التي أيقظت المثقفين العرب، وأشعرتهم بالتقصير والخجل، وأخرجتهم من عزلتهم، ودفعتهم إلى أن يرفعوا هم أيضا أصواتهم، ولو كانوا متأخرين، ولو بدوا مقلدين أو محرجين!

ولقد رأينا هارولد بنتر الذي ظل طوال العام الماضي محتجزا في أحد مستشفيات إنجلترا ليعالج من السرطان رأيناه ينهض وهو في السبعين من عمره ليندد بالحرب في قصيدة قصيرة كأنها صرخة رعب يصور فيها جنود اليانكي، تتار العصر الحديث، وقد انطلقوا في أرجاء العالم الواسع بمواكبهم المسلحة ينشرون الموت حيث حلوا والدمار! ورأينا خافيير ماريأس يفند الحجة التي زعم فيها الأمريكان أنهم يحاربون ديكتاتورية صدام حسين. يقول الكاتب

www.alkottob.com

الأسباني "إن نصف طغاة العالم على الأقل صناعة أمريكية!" وأخيراً رأينا كيف تحول الحفل السنوي الذي أقامته أوبرا فيينا إلى مظاهرة ضد الحرب وضد القيصرية الأمريكية الجديدة!

ولا جدال في أن البيان الذي وقعه عدد من المثقفين السوريين واللبنانيين والمصريين والأتراك، ودعوا فيه صدام حسين الذي كان حكمه خلال ثلاثة عقود كابوسا على العراق وعلى العالم العربي إلى تقديم استقالته، تفاديا لحرب تهدد المنطقة وأهلها بكارثة، وتمهيدا لإقامة نظام ديمقراطي في العراق تحت رعاية الأمم المتحدة، لا جدال في أن الهدف المقصود من هذا البيان الذي وقعه مثقفون معروفون منهم إدوارد سعيد، هو تجنيب العراق والمنطقة كلها ويلات الحرب القادمة. لكن دعوة صدام حسين للاستقالة بدت وكأنها تصديق ضمني للكذبة الأمريكية التي زعمت أن الديمقراطية هي الهدف الذي يسعى له الأمريكان من توجيه الضربة، وليس السيطرة على منابع البترول، وليس مساندة إسرائيل وتمكينها من تحقيق أهدافها التوسعية.

ولو أن المثقفين العرب الذين وقعوا على هذا البيان كانوا قد سبقوا الأمريكان إلى نقد النظام العراقي ومعارضته لكان بيانهم الأخير تعبيرا عن موقف مبدئي نابع من إيمانهم بالديمقراطية والتزامهم الأخلاقي بالدفاع عنها.

صحيح أن أحدا لا يستطيع نفي التهمة عن صدام حسين ونظامه، لكن حديث الأمريكان عن ديكتاتوريته لا يعدو في أحسن الأحوال أن يكون كلمة حق يراد بها باطل. فإذا تبنى بعض المثقفين العرب التهمة ورددوها بعد الأمريكان، فنحن لا نستطيع أن نكذبهم لأن التهمة ثابتة، لكننا سنشك في قدرتهم على التأثير.

هذا هو المأزق الذي وجد هؤلاء المثقفون أنفسهم فيه. فهم لا

www.alkottob.com

يستطيعـون أن يدافعوا عن صدام حسين ونظامه الدموي، ولا يشرفهم أن يكونـوا أدوات في الحـرب الأمريكية المعلنة عليـه. لكنه ليس مـأزق فريق دون فريق. إنه مـأزقنا جميعا!

www.alkottob.com

كلمة هادئة في اشتباك عنيف

أرجو أن تكون الفرصة مازالت متاحة لكلمة هادئة في الاشتباك العنيف القائم منذ الأسبوع الماضي بين الأستاذ فاروق حسني وزير الثقافة، وبين المثقفين المصريين الذي اتهم الطريقة التي عالج بها الوزير ما أثير حول منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة، وما قيل عن المشاهد الجنسية التي ظهرت في بعض الروايات.

وكان الوزير قد علم أن بعض أعضاء مجلس الشعب المحسوبين على الاتجاهات الدينية المتطرفة قد تقدموا بطلب لمساءلة الوزير ورئيس الوزراء في مجلس الشعب عما اعتبروه خدشاً للحياء في ثلاث روايات أصدرتها الهيئة العامة لقصور الثقافة في الشهور الثلاثة الأخيرة، ويبدو أن الوزير قد وجد في الروايات المذكورة ما يمكن أن يتسبب في إحراجه، فطلب التحقيق مع المسئولين عن النشر في الهيئة، وأصدر قراراً بسحب الروايات المتهمة، ثم أصدر قراراً آخر بإعفاء المسئولين عن نشرها من وظائفهم، وهم الأساتذة: على أبو شادي رئيس الهيئة، والروائي محمد البساطي المسئول عن السلسلة التي ظهرت فيها الروايات، وجرجس شكري مدير التحرير، وأحمد عبد

www.alkottob.com

الرازق أبو العلا المشرف على إدارة النشر، ومحمد كشيك أمينها العام.

وهـذه الإجراءات العنيفة كان لا بد أن تثير، ردودا عنيفة تمثلت في البيان الحاد الذي وقعه عدد من الكتاب والفنانين المصريين، واحتجوا فيـه بشدة على قـرارات الوزير، ودافعوا عن حريـة الإبداع، وعن الذين أقيلـوا بسببها من العاملـين في الهيئة العامة لقصـور الثقافة، ودعوا غيرهـم من المثقفـين المصريين والعـرب إلى مقاطعة نشـاط الوزارة، وعـدم الاشـتراك في أعمـال الـدورة المقبلـة لمعرض القاهـرة الدولي للكتاب.

وقـد كان لمـا حـدث أصـداء واسعـة تناقلتهـا الصحـف، وتابعها المثقفـون المصريـون والعـرب، ومنهم الشاعـران الأستـاذان محمود درويش، وممدوح عـدوان اللذان اتصلا بي هـاتفيا مـن عمان ودمشق يسـألان النصيحة، هل يلبيان الدعوة التي وجهت إليهما للمشاركة في أمسيات معرض الكتاب أم يعتذران؟

أريـد أن أقـول إن الإجراءات التي حاول بها الأستاذ فاروق حسني أن يتجنب الوقوع في الحرج الذي توقع أن يلقاه على أيدي المتاجرين بـالديـن، أوقعته في حـرج أكبر، ودفعته وهو الفنـان المثقف المستنير لاتخـاذ إجراءات تتناقض مـع الفن والثقافة والاستنـارة، وتؤدي إلى هـذا الشقاق الذي حدث بينه وبين المثقفين المصريين، فلم يستفد منه إلا المتاجـرون بـالدين الذين ضربوا المثقفين بـالوزير، وضربوا الوزير بـالمثقفـين، ووقفـوا يتفرجون علـى الجميع وهم يتساقطـون، دون أن يتكبـدوا هـم في هذا النصر السهل ما تكبدوه في المعركة السابقة التي أداروهـا حول روايـة "وليمة لأعشـاب البحر"، فـدارت الدوائر عليهم، وخسـروا فيها أكثر مما ربحوا، لأن المثقفين المصريين ومعهم فاروق حسنـي واجهوهم جماعة متحدة متضامنـة تدافع عن العقل والحرية،

www.alkottob.com

وتندد بالخرافة والطغيان.

ما الذي حدث إذن حتى تصدعت وحدة المثقفين المصريين في مواجهة قوى الظلام؟

الإجابة الحاضرة أو السبب المباشر هو طلب الإحاطة الذي تقدم به أعضاء الجماعات الدينية، وكان في حقيقته اتهاما موجها لوزير الثقافة وللحكومة كلها بالتفريط في حماية القيم الأخلاقية، وإنفاق المال العام في إصدار كتب تشيع الفاحشة وتخدش الحياء إلى آخر هذه النغمات الباكية المولولة التي ما فتئت ترددها هذه الجماعات الشريرة الملوثة الأيدي بدماء الأبرياء، تخدع بها السذج وتركب بها إلى السلطة ظهور الغوغاء ، ونحن نعيش في مناخ يسمح لهذه الجماعات بالحركة ويمكنها من إثارة العواطف، وممارسة الضغط، وابتزاز المسئولين، وإشاعة القلق والخوف من خلال الصحف والمنابر الحزبية التي يتسترون وراءها، ويضربون بسيوفها، والتغلغل في مؤسسات التعليم والنقابات المهنية.

ونحن نذكر جرائم الاغتيال التي تعرض لها الساسة والمثقفون ورجال الأمن، ونذكر المذابح التي تعرض لها السياح، ونذكر المحاولات الدنيئة المتواصلة لإشعال الفتنة الطائفية، فلو كنت في مكان الأستاذ فاروق حسني لشعرت مثله بالخوف والقلق، وحاولت أن أتجنب الاقتراب من الفخ، الذي نصبته لي هذه الجماعات في مجلس الشعب، خاصة إذا كنت قد رجعت إلى الروايات المتهمة بالفحش والإثارة الجنسية، فوجدت فيها ما يمكن الاستناد إليه في تأييد التهمة، فضلاً عن أن المناقشة في مجلس الشعب ستدور، إذا دارت، بين أعضاء لم يقرءوا هذه النصوص، وربما كان معظمهم بعيداً عن القراءة بشكل عام، فيكفي أن يلقى عليهم زميلهم المتقدم بطلب الإحاطة عبارة أو

www.alkottob.com

أكـثر من تلك العبارات المكشوفة التي تتضمنها الروايات الثلاث ليجد الوزير نفسه وحيداً تماما في المجلس عاجزاً عن كسب الثقة.

صحيـح أن الوزيـر واجه هـذا الموقف ذاته مرات مـن قبل، فناقش أعضـاء المجلس بكفاءة ورد عليهم بثقـة، وخرج منتصراً لحرية الرأي ولنفسـه، حدث هذا عندما وقف شخص يدعى جلال غريب في مجلس الشعـب يلوح بمجلة "إبداع" التي تصدر عـن وزارة الثقافة منددا بها، لأنهـا وهي المجلة التـي تصدر في بلد الأزهـر الشريف، نشرت صورة للوحـة الفنـان النمسـاوي الشهـير جوستـاف كلميـت "آدم وحـواء" فاعتبرهـا هـذا السيـد الذي وقف يلـوح بالمجلـة صورة خليعـة، لأن الرسـام صـور أبانا آدم وأمنا حـواء عاريين تماما! وقـد سخر فاروق حسنـي من هـذا النائب المسكين، وأخذ يشرح لـه الفرق بين العري في الفن والعري في الواقع، وبين الجسد العاري في اللوحة والجسد العاري في السرير.

كل شـئ في الفـن يتخلص من ماديتـه ويتحول إلى فكـرة، والذي يظـن أن المرأة العارية التـي رسمها محمود سعيد امرأة حقيقية ساذج مختل. وهكذا نفرق أيضاً بين الجنس المقبول في العمل الأدبي والجنس المرفوض. الجنس المقبول هـو الجنس الذي تمت صياغته في العمل الأدبـي فأصبح عنصراً من عناصـره داخلا في نسيجه لا ينفصل عنه ولا يفهـم إلا في علاقتـه ببقيـة العناصـر. أما الجنس المرفوض فهو الجنس الذي يقدم كما هو سعيا وراء إثارة الأغرار المحرومين واقتناص نقودهم!

وكمـا واجه الوزير هذا الموقف عندما تعرض مجلس الشعب لمجلة "إبـداع" واجهـه عندما تعرض المجلس لرواية حيـدر حيدر "وليمة لأعشـاب البحر" التي اتهمتها صحيفة "الشعب" بالإساءة إلى المشاعر

www.alkottob.com

الدينيـة، وتسببت في وقـوع الحوادث المؤسفة التـي وقعت في جامعة الأزهـر. وفي هـذه المواجهـات المتوالية دافـع فـاروق حسنـي بكفاءة وثقـة عن حرية التفكير والتعبير. فلمـاذا تراجع هذه المرة أمام طلاب الإحاطة، وأمر بمصادرة الروايات الثلاث وإعفاء المسئولين عن نشرها من وظائفهم؟

الجواب أن الموقف هذه المرة مختلف عن المواقف السابقة. لقد كان سهـلاً على فـاروق حسنـي أن يدفع تهمة الفحش عـن لوحة جوستاف كلميـت ويكشف عـن جهل الذين ألصقوهـا بها. وكذلـك كان سهلاً أن يقف الموقـف الذي وقفه أثناء مناقشة روايـة "وليمة لأعشاب البحر" فقد تبين للجميع أن المقصود بالضجة التي أثيرت حولها ليس إحراج وزيـر الثقافة وحده، وإنمـا زعزعة النظام وإثـارة الفوضى في البلاد. ومن هنا كانت مواجهة مثيري الشغب عامة شاملة فلم يتحمل فاروق حسنـي عبئها بمفرده، على العكس مما حـدث في الأزمة الأخيرة التي يبدو أنه وجد نفسه وحيداً فيها، وربما قرأ النصوص المتهمة بالفحش أو قرأ بعضها فرأى فيها فحشا بالفعل، وربما وجد أنها لم تكن تستحق النشر ، وأن الذيـن سمحوا بنشرها لم يؤدوا واجبهم، وربما اعتقد أنهم قصـدوا إحراجـه وتآمروا عليـه، فقرر أن يصادرهـا، وأن يتخلص من المسئولـين عن نشرهـا ليتجنب الحرج الذي كان سيجـد فيه نفسه في مجلس الشعب، وهـو منطق نستطيع جميعـا أن نفهمه ونستطيع حتى أن نتساءل معـه عن الأسباب التي حتمت إصدار هذه الروايات بالذات متتابعـة قبل أن تهـدأ الضجة التي أثيرت حول رواية حيدر حيدر. لكن الإجـراءات التي اتخذهـا الأستاذ فـاروق حسني إجـراءات عنيفة كنا نتمنى ألا يلجأ إليها أبداً.

لقـد اضطر فاروق حسني الوزيـر أن يضحي بفاروق حسني الفنان

www.alkottob.com

المستنير.

ربمـا كانت الروايـات الثلاث محدودة القيمة، وربمـا كانت رديئة، لكـن المصـادرة ليست دواء ناجعـا للـرداءة، القـراءة الجـادة والنقد والمناقشة هي الدواء الناجع.

وفي هـذه الحالـة كان الأستـاذ فـاروق حسنـي يستطيـع أن يعلن في مجلس الشعـب أنه ليس ناقـداً أدبيا، وأن الذيـن سمحوا بنشر هذه الروايـات روائيـون ونقـاد متخصصـون وأن المعترضـين علـى هذه الروايـات من أعضـاء مجلس الشعب ليسـو نقاداً أيضـاً، ومع ذلك من حقهـم أن يقولـوا في نقدها ما يشـاؤون على أن يسلمـوا بـالمبدأ الذي يجـب أن يسلـم به الجميع، وهـو أن الحكم على أي عمـل أدبي لا يمكن أن يكـوم حكماً نهائيـاً، وليست له إلا قيمة نسبية، وأنه يقبل المناقشة والمراجعـة والتجريح وإعادة النظر، وأن الضرر الناتج عن إصدار عمل ردئ أخـف بكثير من الضرر الناتج عـن مصادرته، فربما اكتشفنا بعد فوات الأوان أننا قتلنا بهذه المصادرة موهبة حقيقية، وإن الفوز برواية جيدة يستحق تحمل الخسارة الناتجة عن نشر روايتين رديئتين.

فـإذا كان لابـد مـن أن يتخذ الوزيـر إجراء يتجنب بـه الحرج الذي خشـى منـه في مجلس الشعب، فهـو الإجراء الذي اتخذه مـن قبل أثناء معالجتـه للأزمـة التي نشأت عـن نشر رواية "وليمـة لأعشاب البحر" وهـو إحالة الروايات المتهمة إلى لجنة مـن النقاد المشهود لهم بالعلم والخـبرة والموضوعية لكتابـة تقرير فني عنها يستنـد إليه الوزير في اتخـاذ القـرار المناسب، بدلا مـن أن يجمع بين مسئوليـة الخبير الفني والوزيـر المسئول. ولقـد كان الأستاذ فاروق حسنـي يستطيع بإجراء حكيم من هذا النوع أن يقف إلى جانب حرية الإبداع التي تتعرض في بلادنـا لمحنـة حقيقيـة كلنا شهـود عليهـا، وأخشى ما نخشـاه اليوم

www.alkottob.com

أن تثـير الإجـراءات العنيفة التـي لجأ إليها الوزير شهيـة أعداء الحرية وتشجعهـم علـى طلـب المزيد حتـى نلتفت ذات يـوم فنجـد أنفسنا في الظلام ليل نهار.

ومـن الظلم البـيّن أن نأخذ المسئولين عن النشر في الهيئة العامة لقصور الثقافة بكتاب أو ثلاثة كتب لم تعجبنا، وننسى لهم عشرات من أفضل الكتب التي صدرت عندنا خلال الأعوام القليلة الماضية.

وسوف نواصل الدفاع عن حرية التفكر وحرية التعبير.

www.alkottob.com

من الكلمة إلى القنبلة!

إذا كنا جادين حقا في أن نعرف حقيقة ما نواجهه من مشكلات خطيرة متفاقمة تحاصرنا من كل الجهات، وتفرض علينا البقاء في عصور الجهالة والخرافة والقهر والمسغبة، إذا كنا جادين في معرفة هذه المشكلات، وفي تجاوزها، والاندفاع إلى الأمام لنلحق بالعصر الحديث الذي نعيش فيه، ونأخذ بحضارته، ونندمج في حياته، فعلينا أن نعيد النظر في كثير من الأفكار والأسماء والمعاني التي نسلم بها دون قيد، ونرددها دون تفكير، ونستخدمها دون تساؤل أو مراجعة.

وأنا أواصل اليوم ما بدأته قبل أسبوعين، وأذكر بما سبق أن أشرت إليه، وأؤكده بإضاءات جديدة من الأمثلة والتفسيرات والاستنتاجات. حين يهتف المنتمون لبعض الجماعات المتطرفة: **الله** غايتنا، والقرآن دستورنا، والرسول زعيمنا.. إلى آخره فما الذي يقصدونه بهذه العبارات المثيرة؟

نعم، أن **الله** بأسمائه الحسنى، وصفاته المثلى هو الغاية التي يسعى كل مؤمن لأن يبلغها، أو يقترب منها، ويلتمس فيها النور، والعدل، والرحمة، والمغفرة. لكن هذه هي غايتنا النهائية التي قال عنها رامي

www.alkottob.com

في ترجمته البديعة للخيام:

إن تفصل القطرة من بحرها

ففي مداه منتهى أمرها!

ونحن لا نصل إلى هذه الغاية إلا عبر طريق طويل من الأمنيات والآلام والأحلام، نقطعه مرحلة بعد مرحلة، ونحقق فيه غاية بعد غاية. فالغايات كثيرة تتعدد بتعدد المطالب وتختلف باختلاف الظروف.

الدين يلبي حاجتنا للحق المطلق، والعدل المطلق، والسعادة المطلقة. والمجتمع يلبي حاجتنا للتآخي والتضامن والتبادل والتعاون. والدولة تلبي حاجتنا للأمن، والمساواة، والإنتاج، والدفاع عن حياتنا ومصالحنا المشتركة. فهل يميز المنتمون لتلك الجماعات المتطرفة في هتافهم بين واجباتهم الدينية وواجباتهم الدنيوية؟ أم يخلطون خلطا ذريعا بين هذه وتلك، ليتملصوا من أداء ما يجب عليهم أن يؤدوه كمواطنين، وليتجاوزوا الحدود السياسية التي لا تعطيهم أكثر مما تعطي غيرهم، ولا تسمح لهم باغتصاب السلطة والانفراد بها، لأنهم كما زعموا يتحدثون باسم الله، ويلبون نداء هو فوق نداء الأمة ونداء الوطن، فيا للهول، كما كان يقول يوسف بك وهبي! بل هم لا يقنعون باغتصاب السلطة وحدها، وإنما يتجاوزونها لاغتصاب الأرواح، واغتيال الخصوم. فإن كان منهم محتالون كثيرون يفعلون ذلك عمدا، ويعرفون أنهم يجعلون الدين مطية للاستئثار بالدنيا، فأكثر هؤلاء المحتالين أغرار مخدوعون تسحرهم الكلمات، وتضللهم العبارات.

وما يقال عن هذا الشعار الأول يقال عما يليه. فالقرآن دستور أو شريعة، ما في ذلك شك. لكنه شريعة دينية وأخلاقية. أما الدستور بالمعني المعروف المتداول فهو شريعة وضعية أو قانون مدني ينظم

www.alkottob.com

حياتنا المشتركة في هذه الدنيا، باعتبارنا مواطنين لا باعتبارنا مؤمنين. لأننا نعيش في وطن واحد، دون أن نتبع عقيدة دينية واحدة، ففينا مسلمون، وفينا مسيحيون، وفينا غير هؤلاء وهؤلاء.

وما دامت العقائد مختلفة، والظروف تتغير، والدنيا تتطور فعلى الدساتير التي تحكمها أن تكون صورة لها تتغير مثلها، وتساير أطوارها المتعاقبة. وإذن فلابد أن تكون خاضعة للبشر تقبل الحذف والإضافة، والتعديل، والتصحيح حتى تلبي مطالبهم، وتستجيب لحاجاتهم، وهذا ما يتعارض مع قداسة الكتب السماوية التي ينبغي ألا تمتد إليها يد بتعديل أو تحريف. وإذن فيجب أن يظل القرآن الكريم بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وأن يظل الدستور قانونا دنيويا يقبل التغيير والتعديل، بشرط ألا نقلبه كل يوم رأسا علي عقب أو ظهرا لبطن، حتى نرضي هذه الفئة، أو نتجنب إغضاب هذا الحاكم، فنبتذل الدستور ابتذالا، ونحوله إلى ثوب خلق كما كنا نفعل مع ثياب آبائنا نحن التلاميذ الفقراء. لقد كان العام الدراسي يقبل وأيديهم أقصر من أن تشتري لنا ما نحتاج إليه من ملابس جديدة ملائمة، فتتفتق قرائحهم عن عباءات تصير بذلات، وجلابيب تتحول إلى صديريات ومعاطف.

وقد رأينا ما تعرض له الدستور خلال الأعوام الخمسين الماضية في البلاد العربية كافة، وما جرى عليه من تغيير وتعديل، وتقصير وتطويل، وتأجيل وتعطيل، مما لم يجر مثله على ثيابنا القديمة! يجب أن نميز تمييزا واضحا بين القانون الذي ينظم حياتنا الروحية والأخلاقية، وهي في جوهرها حياة فردية خاصة، لأنها تتصل بالقلب والضمير، وبين القانون الذي ينظم حياتنا السياسية، والاجتماعية، وهي بطبيعتها حياة عامة مشتركة.

www.alkottob.com

إن الأخلاق وإن اختلفت مظاهرها وتأثرت بالأوضاع والتقاليد السائدة تعود إلى جوهر ثابت لا يتغير، فالصدق يظل صدقا، ويظل منجيا، والتضحية تظل تضحية، وتظل نبيلة. أما المصالح العملية والسياسات اليومية فهي لا تفتأ تتغير، وقد تنقلب أوضاعها وتذهب من النقيض للنقيض. اليوم نسالم من كنا بالأمس نحاربه، ونخاصم من كنا نصادقه ونعانقه. وفي هذا الضوء نفهم المعنى الكامن في قولهم والرسول زعيمنا. فمادامت الزعامة المقصودة في هذا الهتاف زعامة سياسية، فالرسول لن يكون زعيمهم أبدا.

إن زعامة الأنبياء حتى لو قدر لهم أن ينشئوا دولا كما حدث في الإسلام، غير زعامة السياسيين، لأن الرسول وهو يسير دفة الحكم لا ينطق عن الهوى، وإنما هو وحي يوحي، فإذا اختاره الله إلى جواره فلن يعوضه أحد أبدا.

ثم إن القرن السابع الميلادي الذي ظهرت فيه دولة الرسول يختلف كل الاختلاف عن القرن الحادي والعشرين الذي نعيش نحن فيه. ويثرب في ذلك العهد تختلف عن مصر في هذه الأيام. والمصريون القدماء والمحدثون يختلفون عن المكيين والمدنيين. والإسلام نفسه في هذا العصر يختلف كثيرا عن الإسلام في عصر النبوة. والمطالب، والأوضاع، والظروف، والمشكلات، والفئات الاجتماعية والأحزاب السياسية، والقوى والعلاقات الدولية تختلف كلها شكلا وموضوعا، فكيف يمكن أن تكون السياسة هي السياسة، وتكون الزعامة هي الزعامة؟ لا مفر في هذه الحالة من أن يتقمص المرشد العام شخصية الرسول، أو يدعي أن روح الرسول حلت فيه كما يفعل بعض زعماء الشيعة.

www.alkottob.com

فـإن لم يجرؤ علـى أن يصرح لمريديه بأنه حل محل النبي أو صار وريثا أو خليفة له فسوف يتسرب هذا المعنى ضمنيا إلى المريدين، حين يـرون أن زعامة المرشد المتحققة هي الشكل الوحيد الذي تتجسد فيه زعامة الرسول التي يرفعون بها أصواتهم دون أن يتصوروا معناها أو يفهمـوا مغزاها. والنتيجة أن يتحـول المرشد إلى رجل مقدس، ويصبح في نظر أتباعـه معصوما من الخطأ، فـلا يجرؤ أحد علـي مخالفته أو مناقشته، وأن يكون النظام السياسي الذي يعدنا به هؤلاء هو الطغيان الأسـود المتصل الذي فرضه على آبائنـا وأجدادنا من حكموهم باسم المسيحيـة تارة، والإسـلام تارة أخرى، فانفـردوا بالسلطـة، وأفسدوا الدين والدنيا معا.

والتضليـل لا ينحصـر في حـدود الألفـاظ والعبـارات التـي ترفع بهـا هذه الجماعـات أصواتها، وإنمـا يتعداها إلى ماعداهـا من ألفاظ وعبـارات أخرى قد لا تكـون متداولة كالأولى، لكنها تصطبغ لا محالة بالصبغـة ذاتهـا، وتكتسب من المعـاني ما يتفق مع تلـك المعاني التي فرضتها هذه الجماعات على الدين، والزعامة السياسية، والدستور.

تديـين مظاهر الحيـاة كلها، وإعادة المجتمـع إلى ما كان عليه في العصـور الوسطـي. السياسـة، والاقتصاد، والمـرأة، والرجـل، والرأي، والعقيدة، والفكر والفن، واللغة والأزياء، وذلك عن طريق القانون النفسي الـذي يسميه العلماء قانون التداعي. فالأفكار، والكلمات، والتصرفات تستدعـي ما يرادفها، أو يشابهها، أو يقـترن بها، أو يناقضها. ومادام قائـد الجماعة المتطرفـة قد صار أميرا فالكلمـة المستخدمة هنا عن طريق التداعي ليست الانتخاب أو الاختيار وإنما البيعة.

والمريـدون لا يناقشـون أميرهـم طبعـا ولا يحاسبونـه، ولكنهـم يقبلـون يده. وقد نجح هؤلاء للأسف في أن يفرضوا مصطلحاتهم على

www.alkottob.com

أحـزاب سياسية، وأجهزة إعـلام أصبحت لا تتحدث عن انتخاب رئيس الجمهورية، بل عن مبايعته. ونحن عن طريق التداعي لم نعد مصريين، وإنمـا مسلمـون ونصـارى. ونحـن لا نحتكـم في بلادنـا للقانون، بل للشرع. والأمم الأخرى ليست أمما أخرى، وليست أمما أجنبية، بل كفار. وجـوازات السفر ليست وثائق للتعريف بالشخصية وبالبلد الذي يتبعه حاملها ولكنها صكوك أمان.

ورجـال الشرطـة محتسبـون. والمسيحيـون المصريـون ليسـوا مواطنـين، ولكنهم ذميون. والسياح مستأمنون. والقتلة يدفعون الدية. والموسيقـى منكر. والمبـادئ السياسية الحديثـة أيديولوجيات فاسقة ملحـدة. والأزيـاء التي يرتديها هؤلاء تنتمي للعصـور التي تنتمي لها هذه اللغة فهي حجاب ونقاب، وسروال وجلباب!.

والخطـر لا يقف عند هـذا الحد. وإنما ينتقل عن طريـق التداعي من اللغة إلى الفعل الذي يصبح فيه الموت أمنية من أسمى أمانينا.

هكذا يتحول المتطرفون إلى إرهابيين!

www.alkottob.com

الكلمات فخاخ منصوبة!

سأعيد القول وأكرره مرة بعد مرة، حتى يثبت لي أني أفصحت وأوضحت، وأن ما قلته في تجديد الخطاب قد فهم وعلم، وإلا فأنا لست على يقين من أننا وصلنا إلى شئ نطمئن إليه في هذا الموضوع الخطير.

نحن نتحدث عن تجديد الخطاب الديني، ثم نظل محبوسين في لغتنا القديمة، مكبلين بفكرنا القديم. نتحدث عن ضرورة التجديد وضرورة التطوير، ثم نتناول هذه المسائل أو تلك من المسائل التي نحتاج فيها للخطاب الجديد، فلا نجدد ولا نطور، بل نردد ما كنا نقوله من قبل كأننا آلات تنطق بما نقش على سطحها من كلمات.

خذ مثلا كلامنا عن المرأة ووضعها في البيت والشارع، والدستور، والقانون، والمجتمع.

الدستور، والقانون، وحقوق الإنسان، والعقل، والمنطق تؤكد كلها أن المصريين كلهم سواء، الرجال منهم والنساء. لكننا لا نكاد نخطو بعد ذلك بضع خطوات حتى نتوقف وجلين مرتبكين أمام النصوص الدينية التي يتناقض معناها المباشر مع هذه المساواة، فننكص على

www.alkottob.com

أعقابنـا، ونرضـى بـالانتقاص من حقوق المـرأة ونبرر هذا الانتقاص بمـا يستطيع اختلاقه وتلفيقه فنناقض أنفسنا، ويبقى الحال على ما هو عليه، ويظل الخطاب هو الخطاب.

نعـم. المـرأة في المجتمعـات البدائية نصـف رجل؛ لأنهـا في هذه المجتمعـات جسـد فحسـب، والرجل عقـل وجسد؛ ولأنهـا محرومة من أن تتعلـم، محرومـة من أن تعمل وتنتج، محرومة من أن تفكر وتختار، لكنها في المجتمعات المتقدمة لا تختلف عن الرجل في شئ، ولا تقصر عنه في اكتساب فضيلة، أو إدراك غاية. فإذا كان هناك فرق بين امرأة ورجـل، فهو بين امـرأة بالذات ورجل بالذات، وليس بين جنس الرجال وجنس النساء. هناك امرأة جاهلة غبية. خفيفة فهى لا شئ أمام رجل عاقـل ذكي رصين، وامرأة أخرى قوية فاضلـة مثقفة، فهى أفضل من ألف رجل تافه، وما أكثر الرجال التافهين!.

لكننـا نصطـدم هنـا بالنصوص التـي ثبتت وضع المـرأة المتدني، ونحكم عليها بالبقاء فيه، فماذا نصنع مع هذه النصوص؟

الجـواب. إمـا أن نفهمها بمعناهـا الحرفي، وإمـا أن نتحرر من هذا المعنى الحرفي، ونفهمها بطريقة جديدة، أي بطريقة أصح. فالنص إما أن يتعلـق بحقائق مطلقة لا تتغـير ولا تتبدل، فالحكم الذي نستخلصه منه يظـل ثابتا لا يتأثر بمرور الزمن ولا بتغير الظروف، كشهادتنا أن لا إلـه إلا الله، وأن محمـداً رسول الله. أما النص الـذي يتعلق بالحالات المتغـيرة فالحكم الذي نستخلصـه منها يتطور ويتغـير بتطور الزمن، وتغير الظروف.

المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت سلعة، أو لعبة، أو سبية. وكان بوسـع الرجل أن يقامر على امرأتـه فيخسرها كما خسر الشاعر عـروة بن الـورد زوجته في مقامـرة. وكان بوسع الابـن البكر أن يرث

www.alkottob.com

نســاء أبيه بعد وفاته. وقد رفع الإســلام المرأة درجات من هذا الوضع المــزري. لكن النصوص التــي حررت المرأة جزئيا عنـد ظهور الإسلام تقيدهــا الآن لو أسقطنا الزمــن من حسابنا وفهمناها بمعناها الحرفي الذي يفرضه الخطاب القديم فرضا. أما إذا جددنا خطابنا فسوف نفهم النصوص الدينية التي تتعلق بهذا الموضوع أو بغيره فهما آخر.

لــن نسقط الزمن من حسابنا، لأننا لسنا فاقدي الوعي، ولأن وضع المــرأة الآن يختلف طبعا عن وضعها منذ ألف عام. فإذا كانت القضية قد تغيرت فلابد للحكم الصادر فيها أن يتغير والقضية هى المرأة التي كانــت تعامــل في المجتمعات القديمــة كأنها بهيمــة، فرفعها الإسلام إلى مرتبــة البشر، وأعطاها معظم حقوقها، فمن المنطقي وقد أصبحت جديــرة بالمساواة الكاملة مع الرجل أن يكــون الإسلام أول من يتبنى هذا المبدأ، ويعطي المرأة حقوقها كاملة.

والمــرأة لم تكن مسئولة عن نفسها من قبل، فمن الطبيعي أن يكون نصيبهــا في الميراث نصف نصيب الرجل. ولم تكن مسئولة عن غيرها من قبل، فمن الطبيعي ألا تكلف بمسئولية وأن تعتبر شهادتها ناقصة. لكــن هــذا الوضع تغــير الآن تمامــا، فمن المنطقــي أن تتغــير قراءتنا للنصوص الدينية، فنتفهمها بروحها وغاياتها، لا بحروفها ومعانيها المباشرة. وليس مــن المعقــول اليوم، وقــد أصبحــت المــرأة أستاذة، وقاضيــة، ونائبة في البرلمان، ووزيــرة أن تقدر شهادتها في المحاكم بنصــف شهادة، على حين تعتبر شهادة الرجل ولو كان جاهلا طائشا أميا شهادة كاملة.

ونحــن نرى بعد ذلك أن الأحــكام الموروثة التي نطبقها على المرأة لم تجعل المرأة أفضل، أو أرقى، أو أعف، أو أسعد مما هى في البلاد التي ســاوت بينها وبين الرجل في كل شــئ. فعلينا أن نعيد النظر في فهمنا

www.alkottob.com

لمـا يتعلق بالمـرأة من نصوص، ونراجع ما تركه لنـا الفقهاء القدماء مـن تفسيرات وأحـكام لم تعد تتفـق الآن وإنسانية الإسـلام، وتكريمه للكائـن البشـري، واحترامه لحريتـه، وحرصه على سعادتـه. وهذا هو الخطاب الجديد.

الخطـاب الجديد لا يسقط الزمن من حسابـه، وينظر لمقاصد النص ولا يقيـد نفسـه بعباراته، ويهتم بالإنسان قبـل أن يهتم بأي شئ آخر. إنه باختصار ثورة جذرية شاملة على الخطاب القديم.

الخطاب القديم إذعان وتسليم، والخطاب الجديد بحث ونقد ومساءلة ومحاكمة. والخطاب القديم شكل ومظهر، والخطاب الجديد فكر وجوهر. والخطـاب القديم موصول بالنصوص القديمـة وحدها، مقطوع الصلة بالواقـع يخاصم الحيـاة، ويفرض نفسـه عليها، فلا يلبـي حاجة من حاجاتهـا، ولا يصـدق مـع حقيقة مـن حقائقها، أما الخطـاب الجديد فالحياة بثوابتها ومتغيراتها هى مرجعه الأول وشاهده الذي يقف إلى جانبه ويؤكد صدقه.

الخطـاب إذن ليس مجرد ترجمة محايـدة للأفكار، ولكنه منهج في التفكير، أو أنه عملية عقلية معقدة منظمة تنظيما منطقيا، ومركبة من عدة عمليات جزئية تتمثل في سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض.

وكما أن الخطاب تأليف معقد مركب، فقراءة الخطاب لا تقل تعقيدا وتركيبـا –أقصـد القراءة الصحيحـة التي نحلل بهـا الخطاب ونفهمه ونؤولـه لنضـع أيدينا على ما فيه من أفـكار لا تنفصل عن الكلام، ولا توجد مستقلة عنه، كما لا يوجد كلام مجرد من الأفكار.

لكـن الفكرة لا تقدم نفسها دائمـا ببساطة أو بصراحة، لأنها ليست دائمـا واضحـة أو بريئة أو موضوعيـة، وإنما هـى في معظم الأحيان

www.alkottob.com

ملتبسة مغرضة مختلطة بما يعتمل في نفوسنا من رغبات ومخاوف ووساوس وذكريات وكوابح نعي بعضها ونتجاهل أكثرها، ونعبر عن هذا كله في الخطاب الذي يستطيع أن يفصح عن كل شئ، التصريح، والتلميح، والمنطوق به والمسكوت عنه بشرط واحد هو أن نحسن قراءة الخطاب، وندرك أنه يخفى ويعلن، ويكتم ويبوح.

هذا الفهم الجديد لوظيفة اللغة هو ما نقصده حين نتحدث عن خطاب جديد يختلف اختلافا جذريا عن الخطاب القديم.

إننا، حين نميز بين الخطابين، لا نميز بين طريقتين في التعبير، ولكن نميز بين طريقتين في فهم الكلام. وهكذا نستطيع أن نقرأ النصوص القديمة قراءة جديدة تكشف أعماقها وتفضح أسرارها، كما نستطيع أن نقرأ النصوص الجديدة قراءة قديمة تضللنا ولا تفصح إلا عن القليل.

كثير مما يكتب ويقال في هذه الأيام يخدرنا، ويقتل إحساسنا بالزمن، ويوهمنا أن ما حدث قبل ألف عام يمكن أن يتكرر الآن. ولأننا نخجل من تخلفنا وعجزنا عن اللحاق بالآخرين نصبح فريسة سهلة لهذا الخطاب الخادع فنصدقه، ونتحمس لوعوده الكاذبة، ونتجاهل ما قد يراودنا من الشك فيه، وإن استطاع بعضنا أن يقاوم الضعف ويكتشف الخديعة، ويدرك أنه حديث خرافة، وتضليل في تضليل.

لكن هذه ليست مجرد شجاعة. إنها قدرة على الفهم وكشف العيوب والثغرات. فالكلمات قد تستعمل بعكس معناها. وربما تحولت كل كلمة إلى فخ منصوب.

عندما يحدثوننا عن البيعة وهم يدعوننا لممارسة الديمقراطية لا يقعون في سهو، ولا يستخدمون هذه الكلمة حبا في التراث، بل يسعون إلى إخراجنا من مجال الاختيار الحر ليدخلونا في دائرة الإذعان

www.alkottob.com

والتسليـم. فـالبيعـة وهـى تشير في الأصل إلى شكل مـن أشكال التعاقد والاختيـار المشروط تحولـت في الممارسة التاريخيـة إلى قهر صريح لا حريـة فيـه ولا اختيار. فالحاكـم يفرض نفسـه أولا، ويستولي على السلطـة بالقوة كما فعـل المعز حين دخل مصر فاتحـا فسأله العلماء المصريـون عن حسبـه ونسبه، فأخرج سيفه وقال هـذا حسبي! ثم نثر عليهـم دنانيره الذهبيـة وقال هذا نسبي؟! وهـو إذن لم يأت إلى مصر ليرشح نفسه في الانتخابات، ولكن ليبايعه أهلها. المذعنون لهم ذهبه، وليس للمعارضين إلا ضرب الأعناق!

هكذا خرجت الكلمة من معناها الأصلي، فلم تعد تدل على التعاقد، بـل أصبحت تدل على التسليـم والإذعان. ولكي نخرج من هذا الإذعان يجـب أن نفهم هذه اللغة الملتبسة، ونكتشـف حقيقة المعنى المقصود. بعبارة أخرى يجب أن نجدد الخطاب الثقافي!

www.alkottob.com

ليست أخطاء لغوية!

نحن نستهين باللغة، ونسيء استعمالها، ولا ننتبه لخطرها، ومعنى هذا أننا لا نرى، ولا نفكر، ولا نميز بين الشيء وشبيهه، أو بين الفكرة ونقيضها. ولهذا يسهل على الدجالين والمشعوذين والطغاة ووزرائهم وكتابهم أن يخدعونا ويضللونا، ويسوقونا إلى الكارثة بعد الكارثة، ونحن نتبعهم، وننساق وراءهم، ونلدغ من الجحر ذاته بدل المرة مرات، لأننا لا ننتفع بالدرس، ولا نستخلص العبرة، ولا نحاسب أنفسنا، ولا نحاسب غيرنا.

حين استولى ضباط الجيش على السلطة لم يسموا عملهم انقلابا، كما كان يجب عليهم أن يفعلوا لو أنهم كانوا يحترمون اللغة أو يحترمون المتحدثين بها، ولكنهم سموه حركة!

ويبدو أنهم وجدوا بعد ذلك أن الحركة كلمة محايدة لا تفصح عن معنى واضح أو اتجاه محدد، فأضافوا لها صفة تحسنها وتجعلها مقبولة لدى رجل الشارع، فأصبحت هذه الحركة مباركة، ثم مضت سنة أو سنتان قبل أن يعيدوا النظر في هذه التسمية، ويجعلوا انقلابهم ثورة، ليضفوا عليه طابعا شعبيا يخدع الجماهير ويوهمها بأنها تشارك في صنع

www.alkottob.com

الأحداث، أو يورطها فيها، ويحملها المسئولية عما ينفرد الحكام بصنعه! وحين قرر الضباط أن يبقوا في السلطة، وأن ينفردوا بها، ويحكموا البلاد خلف برلمان مزيف يأتمر بأمرهم، حرصوا على أن يغيروا اسم البرلمان القديم وجسمه، فجعلوه مجلسا واحدا بدلا من اثنين، وسموه مجلس الأمة بدلا من مجلس النواب، ليوهمونا بأن الديمقراطية أصبحت مباشرة وأن الأمة أصبحت تحكم بنفسها لا بنوابها أو ممثليها! وحين وقعت هزيمة ١٩٦٧ التي كان لابد أن تقع بعد أن عاشت البلاد خمسة عشر عاما من الطغيان المتصل، حرصوا على ألا يسموها باسمها الحقيقي الفاجع، وإنما أطلقوا عليها اسم الدلع الذي اشتهرت به، وهو النكسة. والقصد معروف وهو التعمية علينا، والحيلولة بيننا وأن نعرف حقيقة ما حدث، ومازلنا نجهلها حتى الآن.

وقد فهم الغربيون عنا هذا الضعف، وأدركوا أننا لا نحب الصراحة، ولا نطلب الدقة، ونفضل الوهم الخادع المريح على الحقيقة التي قد تكون مرة المذاق، وقد تثير القلق، وتستدعي السهر وإطالة التفكير، وبذل الجهود. ولهذا كفوا عن أن يسموا الدول المتخلفة دولا متخلفة، وقرروا أن ينافقوها كما تنافق نفسها، وأن يسموها دولا نامية ليهونوا عليها فقرها وجهلها وغربتها في العصر الذي تعيش فيه، وشتان بالطبع بين النمو والتخلف، شتان بين الصغير الذي مازال ينمو، والكبير المتخلف الذي يؤثر النوم على اليقظة، والكسل على العمل، والوهم على الحقيقة! وكما نفعل في حديثنا عن النمو والتخلف، والانقلاب والثورة، والنكسة والهزيمة، نفعل في حديثنا عن أي شيء آخر مما يتصل بحياتنا العامة أو حياتنا الخاصة.

نحن نخاف من الكلمات، ونتعامل معها كأنها أرواح طيبة أو شريرة، نتوسل ببعضها، ونستعيذ من بعضها الآخر، كما يفعل البدائيون

www.alkottob.com

الذيـن يعتقدون أن التلفظ باسم الشيء يستحضره، فنحن لا نجرؤ على تسميـة ما نخشـاه باسمه الصريح، وحين لا نكف عـن ذكر ما نتمناه ونأنس بوجوده، وهو سلوك لا نختص به وحدنا، بل هو شائع في كل الأمم، وبالـذات في الأوساط الشعبيـة التي لم تتحرر نهائيا من فكرها الخـرافي الموروث، وهـذا ما يسميه علمـاء النفس "اللفظيـة"، وتتمثل في التعامـل مـع الكلمـات باعتبارهـا بديلا عمـا تسميه وتشـير إليه. وقـد استغلـت أجهـزة الدعايـة السياسيـة والاقتصاديـة هـذه النزعة لـترويج ما تسعى لترويجه، فما عليها إلا أن تطلق ما تشاء من الأسماء والأوصـاف على ما تشاء من الأفـكار والأنباء والسلع، وأن تخلع على هـذه الدعاية ثيابا مستعارة من الجد والأهمية، وألا تكف عن تكرار ما تقول، وعن إذاعته على الناس صباح مساء حتى يصبح عنصرا مألوفا في حياتهـم اليوميـة أو شرطا من شروط وجودهم. وهكذا تحل الصور محـل الحقائق، وتنـوب الألفاظ عن تلبية المطالـب وأداء الحقوق. فإن كان لابد أن نتقدم فالتقدم كلمة. وإن كان لابد أن نتحرر فالتحرر كلمة، وإن كان لابـد أن نتغير وضعنا كلمة محل أخرى، وشعارا مكان شعار. انظر مثلا إلى كلمة الأمة كيف عدلناها وبدلناها وضيقناها ووسعناها حتـى أصبحـت تحمل من المعـاني والأفكار ما تحتمله ومـالا تحتمله. والأصـل في الأمـة أنهـا تعنـي أي جنس مـن الناس أو مـن الحيوان، ويبـدو أن الأمـة في لغتنـا اشتقـاق مـن الأم. فـكل جماعـة أو ذريـة تنتمـي لأم واحـدة أو أصـل واحـد أمـة. وفي هـذا المعنى تتفـق اللغة العربيـة مع اللغات اللاتينيـة، فكلمة الأمة في هـذه اللغات nation مشتقـة مـن كلمـة natif أي الوليـد أو المولـود. غـير أن هـذا المعنى الأصلـي تراجـع شيئـا فشيئـا، وحلـت محلـه معـان أخـرى تطـور بعضهـا عـن بعض، حتـى وصلنـا إلى المعنـى الاصطلاحـي الـذي

www.alkottob.com

يفهمه الناس اليوم من كلمة الأمة في جميع اللغات والثقافات. والأمة بهذا المعنى الاصطلاحي جماعة من البشر تنتمي لوطن واحد، وتتكلم لغة واحدة، وتجمع بين أفرادها وعناصرها تجارب الماضي، وتحديات الحاضر، وأهداف المستقبل وأحلامه.

ومن البديهي أن هذا الشعور الجامع بالانتماء يحتاج إلى شكل يتجسد فيه، ويمارس فعله ووجوده. وهذه هي الوظيفة التي تنهض بها الدولة. فالدولة هي الصورة أو الحالة Etat التي تكون عليها الأمة لتضمن وجودها وأمنها وحريتها. والأمة بغير دولة مادة بغير صورة ولا إرادة ولا فاعلية. وقد ارتبط وجود الأمة في العصور الحديثة بوجود الدولة القومية التي خرجت من رحم الدولة الدينية أو الإمبراطورية المقدسة. الدين رباط جامع، لكن هذا الرباط لم يصمد أمام تطور اللغات والثقافات واختلاف المصالح والظروف، هذا الاختلاف الذي عبر عن نفسه في البداية تعبيرا دينيا، حين تحولت العقيدة الأصلية إلى مذاهب متعددة واجتهادات شتى. ثم تباينت المذاهب، ونضجت اللغات، وتضاربت المصالح والسياسات فنشأت الدولة القومية على أنقاض الدولة الدينية التي ذهبت في الغابرين فلم يبق منها إلا صور متحجرة أو نزعات رجعية متخلفة. وقد عرفنا هذه الأطوار في بلادنا كما عرفتها الأمم الأخرى.

بل لقد عرفنا بعض هذه الأطوار قبل غيرنا، لان الدولة المركزية نشأت في مصر قبل أن تنشأ في أي بلد آخر، ومع ذلك فالأمة في لغتنا وثقافتنا فوضى من المعاني والمفاهيم الغامضة، لأن معنى الكلمة لا تحدده الكلمة وإنما يحدده المتكلمون، ونحن نعرف أن اللغة العربية يتكلمها المصريون وغير المصريين، فهي ليست لغتنا وحدنا، وإنما هي لغة كثيرين تعبر عنهم، وتدافع عن مصالحهم وربما استطاعت أن

www.alkottob.com

تفرض وجهات نظرهم، كما يحدث في هذه الأيام التي تمكنت فيها القوي المحافظة من السيطرة على مراكز التوجيه الثقافي في العالم العربي، واستخدامها في مراجعة الأفكار والمفاهيم الحديثة، والتشكيك في صدقها، وإضعاف نفوذها وإعادة صياغتها بما يضمن لهذه القوى أن تواصل وجودها المتحجر في عالم لا يكف عن التطور والتحول، وهكذا لم تعد الأمة أمة، أو لم نعد نعرف نحن المصريين إلى أي امة ننتمي. إن هذه الكلمة التي كانت تجمع بيننا بالأمس تفرقنا في هذه الأيام. وفي الوقت الذي تبعدنا فيه عن أنفسنا تخلطنا بغيرنا فلا نتمثل وجودنا الحق، وربما أصبح فيه بعضنا حربا على هذا الوجود.

ولقد تربى الجيل الذي انتمي إليه على الثقافة الوطنية التي بلورتها ثورة١٩١٩، هذه الثورة التي حررت مصر من الانتداب البريطاني بعد أن تحررت من تبعيتها للعثمانيين، وحددت مكانها في التاريخ، وشكلت وعيها بنفسها، وفهمها لدورها في العصور الحديثة، فمن الطبيعي أن يشعر المصريون بخصوصيتهم، وأن يعتبروا أنفسهم امة حرة مستقلة. وهكذا نشأت الأجيال التي ظهرت بين أواخر القرن التاسع عشر وأواسط القرن العشرين، وهي لا تعرف إلا أمة واحدة تنتمي لها هي الأمة المصرية.

غير أن الاحداث التي توالت على مصر والبلاد العربية الأخرى عقب الحرب العالمية الثانية، وخاصة نجاح الصهيونيين في اغتصاب فلسطين أوقف المصريين والعرب جميعا أمام خطر داهم مشترك، وأقنعهم بحاجتهم الملحة للتضامن الذي لم يكتفوا به برغم إنهم لم ينجحوا في تحقيقه، وإنما سعوا لما هو ابعد من التضامن واقوي، وهو الوحدة التي فشلوا في أن يحققوها بالفعل، وفضلوا كعادتهم أن يحققوها بالكلام. وحدة ما يغلبها غلاب؟!

www.alkottob.com

لم تتحقق الوحدة العربية، ولم تتمكن الأمة العربية، بالتالي من أن تصبح امة، لأنها ظلت على حالها شعوبا متعددة ودولا مختلفة، لا ترعى في بعض الأحيان حقوق الجوار، فضلا عن أن تندمج في دولة واحدة تتيح للشعوب العربية أن تتواصل وتتفاعل، وتتكامل، وتنمي طاقاتها، وتوحد إرادتها وتحقق أهدافها المشتركة، ومع أن الأمة العربية لم تصبح حقيقة سياسية واقعة وظلت حلما من الأحلام، فقد انتمينا لهذا الحلم، وأصبحنا جزءا منه، واندمجنا فيه، وتخلينا عن الحقيقة السياسية القائمة فعلا، وهي الأمة المصرية. والعجيب أن النظم التي رفعت شعارات الوحدة العربية كانت أشد من غيرها حربا على هذه الوحدة العربية، لأنها أذلت المواطنين، وأفقرتهم، وحرمتهم من أبسط حقوقهم الإنسانية والوطنية، فلم يبق لهم إلا اللواذ بانتماءاتهم العرقية والطائفية الراسخة الموروثة. وهكذا أصبحت الوحدة الوطنية التي كانت متحققة بالفعل في لبنان، والسودان، والجزائر، والعراق معرضة للانهيار والتمزق، بدلا من أن تدخل هذه البلاد في اتحادات أكبر.

هذا الفشل استغلته النظم الرجعية العربية والجماعات الدينية المتطرفة التي شجعتها الهزائم المتلاحقة على التشكيك في كل ما تحقق في نهضتنا الحديثة، واعتباره رجسا من عمل الشيطان، وإعادة إحياء العصور الماضية، وتبني ما كان سائدا فيها من أفكار، ومصطلحات وأزياء، وتقاليد، وهكذا حل الانتماء الديني محل الانتماء الوطني والقومي، وصارت الأمة الإسلامية بديلا عن الامة المصرية والأمة العربية، وأصبح ما يربطني بالصينيين والأفغان، والهنود، والنيجيريين الذين يدينون بالإسلام أقوى مما يربطني بالمصريين الذين لا يدينون به؟! وكما حرفنا كلمة الأمة عن موضعها، وحملناها مالا تحتمل

www.alkottob.com

مـن المعـاني المتضاربـة والـدلالات المتناقضـة، فعلنـا مـع كلمـات أخـرى كثـيرة ومصطلحـات شتـي، فلـم يعـد الدستـور دستـورا، وأصبحـت الجمهوريـة ملكيـة، وصـار الديـن دولـة، وعـاد الماضـي حاضـرا، وأمسـى كل صعلـوك باشـا، وكل جميـل عسـلا وسكـرا.. ومـن السذاجـة أن نعتبرها أخطاء لغوية. لا، وإنمـا هي أخطر وأفحش، ونتائجها أقسي مما نتصور وأشد!

www.alkottob.com

اللعب بالكلمات!

في الأوقات الضائعة، ومنها أوقات الفراغ والانتظار والسفر، يلعب الناس بالكلمات. يجعلونها حروفا مفردة تنزل من أعلى إلى أسفل، وتذهب من جانب إلى الجانب المقابل، لتتقاطع في مركز مشترك تجتمع فيه هذه الحروف التي نلعب بها، ونبحث عما يمكن أن نجده فيها. وفي عصور الانحطاط يلعب الناس أيضا بالكلمات، فيكتبون جملا لا تتضمن حروفا لينة أو حروفا منقوطة، وينظمون أشعارا تقرأ من اليسار لليمين كما تقرأ من اليمين لليسار، ويشكلون من الأصوات والمقاطع الواحدة جملا مختلفة، كما كنا نفعل ونحن صغار فنقول:

طرقت الباب حتى كل متني

فلما كل متني، كلمتني!

لكن اللعب بالكلمات كاللعب بالنار. لأن الكلمات ليست مجرد حروف متجاورة، أو علامات يغني بعضها عن بعض، وإنما هي بكل بساطة كائنات حية، ربما كانت في البداية مجرد أصوات أو علامات لا معنى لها، لكنها تكتسب معانيها بالألفة، أي بالاتفاق والاصطلاح. نستطيع أن نقول مع بعض التجاوز إن السماء لدى كل البشر هي

www.alkottob.com

السمـاء، لكن اسمهـا في العربية يختلف عن اسمهـا في الإنجليزية، أو الصينيـة، أو السواحليـة. نحن اتفقنـا على أن نسمي السمـاء سماء، أو ورثنـا هذا الاسم عن الذين اتفقوا علـى أن يطلقوه على هذه المسميات التـي نشير إليها بهـذا الاسـم. وآخرون سمـوا السمـاء Sky، وسواهم سموهـاCiel. لكـن هـذه الأسمـاء خالطـت مشاعرنـا وعواطفنـا، وأفكارنـا وأحلامنـا، وتحولت بـالألفـة والاستعمـال إلى موجودات أو كائنـات حية. فالسماء في لغتنـا مؤنثة، ولابد أن لهـذا التأنيث أصلا أسطوريـا. وهـي في لغـات أخـرى مذكـرة، أو محايـدة لا جنس لهـا، ولابـد أن هنـاك مـا يفسر هـذا وذاك. فقد ارتبطـت السمـاء، والأرض، والريـح، والمطـر، والشمس، والقمـر بالديـن وبالكائنـات العلويـة المقدسـة التـي منحـت السمـاء صورتها ومعناهـا في ثقافـة كل أمة. هكـذا تبـدأ الكلمـات وهـي مجرد أصـوات غريزيـة لا تعبر عـن معنى واضـح، ثم لا تلبث حتى تصبح أسمـاء معروفة لأشياء ومعان محددة متفـق عليهـا بين أبناء اللغة الواحدة، بحيث يفهـم كل منهم عن الآخر ما يقصد، وينقل إليه الحقائق والوقائع كما يراها ويفهمها، إلا إذا كان عابثـا كذابا، فبوسعنا أن نكتشـف كذبه وعبثه حين نطابق بين القول والفعل، أو بين الأسماء والمسميات. وربما جاريناه فيه وتواطأنا معه عليـه، لأن الإقـرار بالحقيقـة ليس أمـرا سهلا في كل حـال، ومقاومة الوهـم، والتـزام الصدق، وتفنيـد الأكاذيب عمل صعب ربمـا بلغ مبلغ البطولة التي لا نطيق دائما تكاليفها، ولا نتحمل دائما تبعاتها، ولهذا نؤثـر الصمـت في بعض الأحيـان، ونتظاهر بالقبـول والرضا، ونبيع الوهم ونشتريـه، ونسمي الأشياء بغير أسمائهـا، ونلعب بالكلمات مع اللاعبـين، ظانين أننا نستطيع في نهايـة اللعب أن نستغفر، وأن نغسل أيدينـا ونتطهر. وهذا وهم آخـر، لأن الكذب لا يلوث الأيدي وحدها، بل

www.alkottob.com

يلـوث الروح ذاتهـا. والكلمات تنتقـم لنفسها، فتعبث بمـن يعبث بها، وتستدرجه إلى حيث يتخبط وينزلق، ويفقد القدرة على الإدراك والتمييز. تأمـل مثلا ما فعله بنـا الخلط بين الدول العربية وبـين الأمة العربية. حين نتحدث عن دول عربية نتحدث عن حقائق ملموسة تتمثل في هذه البـلاد، يتكلـم سكانها اللغة العربية أو لهجـات مختلفة من هذه اللغة، وتقـع في تلك المساحة الواسعة من الأرض الممتدة بين الخليج العربي والمحيط الأطلسي.

ومـن المنطقي أن تفكر الشعـوب العربيـة في أن تتضامن وتجتمع في منظمـة واحدة تنسق نشاطها وتنظمه، وتستثمر قواها، وتحقق لها التكامـل، وتساعدها على النمو والتقدم. من المنطقي أن تفكر الشعوب العربيـة علـى هذا النحـو الذي تـبرره وتستدعيـه المطالـب السياسية والروابط المعنوية، وهذا ما قامت من أجله جامعة الدول العربية.

ومن المنطقي أيضا، أو مما يمكن فهمه على الأقل ألا يكتفي العرب بمـا تمثلـه جامعة الدول العربية، وما تحققه لهـم، وأن يطمحوا إلى ما هو أبعد وأقوى من أشكال التنسيق والتوحيد، وهو إقامة كيان سياسي واحـد يجمع بين الدول العربية، ويستخدم سلطاته الواسعة ومؤسساته الواحـدة في تحقيق مالا تستطيـع الجامعة العربيـة أن تحققه إلا على نحـو جزئـي أو بإيقاع بطـيء لا تصبر عليـه الحاجـات العاجلة التي تستدعي تكتيل القوى وتوحيد الصفوف.

كل هـذا منطقـي مفهوم، لكن هذا المنطقي المفهـوم لم يتحقق، لان هناك عقبات موضوعية كان لابد من إدراكها، والاعتراف بها، والعمل علـى إزالتها و تجاوزهـا، فالبلاد العربية مترامية الأطراف، متباينة الأعـراق، فيهـا مـن أسباب الاختـلاف والانفصـال بقدر مـا فيها من أسبـاب الاتفاق والاتحاد، فلابد من إرادة قوية مشتركة تتوفر للأقطار

www.alkottob.com

التي تريد أن تدخل في كيان واحد، ولابد إذن من نظم ديمقراطية تتمثل فيها هـذه الإرادة المشتركة، وتجد من الجماهير المؤيدة لها ما يساعد على تجاوز العقبات وتحقيق الأحلام.

لكـن شيئـا من هـذا لم يتحقـق، لا النظـم الديمقراطيـة، ولا الإرادة المشتركـة، ولا الوحـدة العربيـة بالطبع، بـل أن محـاولات الانفصال والانقسـام كانـت أكـثر وأنجح من محـاولات التوحيد، ومـع ذلك فقد ظللنا حتى الآن نتحدث عن أمة عربية موجودة وموحدة في تصوراتنا طبعـا، وإن كانـت ممزقـة في دول مختلفـة ربما قاتل بعضهـا بعضا، لأن شعورنـا القوي لحاجتنا إلى الاتحاد، مـع إدراكنا صعوبة تحقيقه خدعنا فظننا أن ما نحتاج إلى تحقيقه قد تحقق، وأصبحنا نتحدث عن الأمـة العربية التـي لم تتشكل بعد، ولم تتوحد بعـد، بل أصبحنا ننتظر رد فعلها على ما يحدث هنا وهناك فيطول انتظارنا، ونيأس. دون أن يكـون هناك مـبرر للانتظار، أو اليأس، لأن هذه الأمة التي ننتظرها لا توجـد إلا شعوبا مختلفة ودولا متعددة، ومازالت الوحدة العربية وهي شرط وجود الأمة حلما من الأحلام.

وبعضنـا يظـن أن العـرب كانـوا أمة واحـدة، ثم تمزقـوا أو مزقهم الاستعمـار الحديـث، وهـذا وهم ساقنـا إليه ظهـور دول عربية لم تكن موجـودة في أي عصـر مـن عصـور التاريـخ، وإنمـا تديـن بوجودها لبعض الـدول الغربيـة، كمـا ساقنـا لهـذا الوهـم خلطنـا الدائـم بين الجامعـة الدينيـة والجامعـة القومية، وبـين دولة الخلافـة من ناحية والـدول العربيـة الحديثـة مـن ناحيـة أخـرى. وقـد أوحى هـذا الخلط لأحـد دعـاة الوحدة العربية بـأن يقول في عبارة عاطفيـة أن العروبة قـدر محبـب لان العروبـة في تصوره مـيراث من الماضـي لا نستطيع الإفـلات منه كمـا لا نستطيع الإفـلات من ملامحنـا وانتماءاتنا التي

www.alkottob.com

ورثناهـا عن آبائنا وأجدادنـا، وليست مشروعا جديدا، أو قرارا وصلنا إليـه بملء حريتنـا وإرادتنا، لأنـه يلبي حاجاتنا، ويحقـق مصالحنا. هـذا الفكـر القومـي الرومانتيكـي كانـت لـه آثـار بالغـة السـوء، لأنـه عجـز عـن فهـم الماضـي، كمـا عجـز عـن بنـاء المستقبـل. أمـا عجـزه عـن فهـم الماضـي، فلأننـا لم نكن في زمـن الأمويـين أو العباسيـين أو حتـى العثمانيـين أمة واحـدة، ولم تكن البـلاد العربية أرضـا واحـدة، وإنمـا كانت ولايـات، أو مستعمـرات خاضعـة بالقوة لهـذه الأسـرة الحاكمـة أو لغيرهـا. وحتـى القـرن السادس عشر الميـلادي كانـت البـلاد العربيـة بمـا فيهـا مصـر تتكلـم خليطا من اللغـات واللهجـات. ولا تـزال نسـب مختلفة مـن الشعـوب العربية في المشـرق والمغرب تتكلم الكرديـة، والسوريانية، والنوبيـة، والبربرية. ولم يحـدث إلا في عهـود خاطفـة أن استطاعـت دولة واحـدة أن تبسط سلطانهـا علـى كل الأراضـي التـي نسميهـا الآن الوطـن العربـي. هـذا هو الماضي الـذي لا نريد أن نفهمه، ولا نريـد أن نعترف به، لأنه يكشـف لنا بكل وضـوح أن الأمة العربية لم توجد فيـه، فإذا كان لابد أن توجـد فيجـب أن يكـون ذلـك في المستقبـل، وهـي إذن ليست قدرا مفروضـا، وإنمـا هـي إرادة مشتركـة، هـذه الإرادة المشتركة لا يمكن أن تتمثـل في حاكـم فـرد من هـؤلاء الحـكام الذين يحبـون أن يلعبوا بالشعـارات، وأن يقيموا الوحدة بالليل، ويلغوها بالنهار، وإنما تتمثل هـذه الإرادة المشتركـة في نظـم ديمقراطيـة حقيقيـة تمثـل الشعـوب العربيـة وتستند إليها وتعبر عن إرادتها، فالأمة العربية ليست ماضيا موروثـا، وإنما هـي مستقبل نصنعـه ونسعى إليه، فلابـد أن نتخلص مـن فكرة القـدر المحبـب، لأن القـدر الذي سيفرض علينـا مستقبلنا السياسـي سيفرض علينـا الأدوات التـي يتحقـق بها هـذا المستقبل،

www.alkottob.com

ومـن المؤكـد أن هـذه الفكرة كانـت أساسـا استند إليه الحـكام العرب الذيـن زعمـوا أنهم جـاءوا ليحققوا الوحدة، فلـم يحققـوا إلا الطغيان!
ومـن المؤسـف أن الجامعـة العربية، وهي الإنجـاز الوحيد الذي تحقق في طريـق الوحـدة، تتعرض الآن للطعنـات. فما دامت الأمـة العربية قـد توحـدت في أوهـام البعض فقد أصبحـت الجامعة أصغـر من هذه الأوهـام!

www.alkottob.com

ذو العقل يشقي..!

أنا مدين للقراء بتوضيح لابد منه. فإن لم يكن ديني للقارئ الشاب الذي لا يعرف بداياتي، فهو للمخضرم الذي سبقني قليلاً أو سبقته، فضلا عن قارئ المستقبل الذي ربما قدر لي أن يقرأني، فيراني أقول كلاما في زمن، وأقول كلاما آخر في زمن آخر، دون أن يعرف أسباب هذا التحول. وربما ظن بي ظن السوء، فاعتقد أنى كنت أميل مع الريح حيث تميل. وهو معذور. فقد عصفت الرياح بكل شيء. ومسخ الرهبوت تارة، والرغبوت تارة أخرى سادة نجبا كانوا فأصبحوا. وربما ظلوا، ينقلبون على أنفسهم حتى لم نعد نميز لهم رأسا من عقب!. ونحن لا ننكر على أحد أن يراجع نفسه بين الحين والحين، ويصحح اختياراته، ويعدل مواقفه.ولا نريد أن ينكر علينا أحد ذلك، بل نحن ننكر الثبات إذا كان جمودا وتحجرا وتقليدا، وخوفا من مواجهة النفس ومواجهة الآخرين.

لكن التحولات الناتجة عن تأمل التجارب والاستفادة من أخطاء الماضي شيء، والانقلابات الفجائية الناتجة عن الرغبة في الثواب والخوف من العقاب شيء آخر. ومن المؤسف أن يكون معظم ثباتنا تقليدا وجمودا، وأن يكون معظم تحولنا خوفا وطمعا.

www.alkottob.com

نحن ننتظر حتى تقول الحكومة فنقول، وحتى تفعل الحكومة فنفعل. فإذا كان هذا السلوك الذيلي أو السلبي مفهوما من مواطن مسحوق لا حول له ولا طاقة على أن يفكر لنفسه أو يجهر برأيه، فهو ليس مفهوما ولا مقبولا من المثقفين أصحاب الرأي الموكلين بتصويب الخطأ وحراسة القيم والتبشير بالمستقبل.

وإننا في أشد الحاجة لمراجعة النفس، وتصحيح المسار، والتحول، والتطور مع الزمن. لكن هذا التحول لا يمكن أن يكون مؤثرا أو فاعلا إلا إذا كان استجابة منطقية لتجاربنا السابقة. نحن لا نخون أنفسنا، ولا نتبرأ من ماضينا حين ننقد تجاربنا، ونصحح أخطاءنا، بل نستفيد من هذا الماضي حين نستخلص منه العبرة، وحين نعتلي ما وقعنا فيه من أخطاء لنستشرف آفاق المستقبل. ونحن على العكس من ذلك نهدر ماضينا ونقتله حين نقلده ونقدسه ولو كان كله أمجادا وانتصارات، فكيف وقد خسرنا فيه الكثير، وقاسينا الكثير، فلابد أن نتعلم من الألم، ولابد أن نستفيد من الخسارة.

ولقد صرحت في حديث الأربعاء الماضي بأن الأمة العربية لم تولد بعد، ولم توجد من قبل إلا اسما بدون مسمى، أو حلما، أو شعارا، أو مشروعا سياسيا لم نفكر فيه كما يجب، ولم نعمل من أجله كما يجب. وربما فأجأ هذا التصريح بعض الذين يعرفونني، أو أخذهم على غرة، وربما سبب للذين لا يتفقون معي فيما صرحت به أذى قليلا أو كثيرا.

فلاشك أن بعض القراء يعلم أني كنت من أشد الناس إيمانا بوجود الأمة العربية كواقع ملموس يملأ السمع والبصر. وكنت منذ أواسط الخمسينيات ضمن قلة من أوائل المصريين الذين رفعوا هذا الشعار، وتحمسوا له، ودافعوا عنه قولا وعملا، حين كان الحديث عن الأمة العربية وعن عروبة المصريين غير مألوف في مصر، لا في الأوساط

www.alkottob.com

السياسية، ولا في الأوساط الثقافية. لأن مصر كان لها دائما وضع خاص يميزها عن الأقطار المحيطة بها، حتى في العصور الطويلة التي فقدت فيها استقلالها وتحولت إلى ولاية في إمبراطورية يحكمها الفرس، أو اليونان، أو الرومان، أو العرب، أو الأتراك العثمانيون.

وفي الوقت الذي تغيرت فيه حدود العراق، والشام و الجزيرة، والمغرب، وقسم كل بلد من هذه البلاد إلى عدة ولايات ظلت مصر موحدة محتفظة بحدودها التاريخية طوال العصور.

وعندما نجح محمد على في أن يستقل بمصر وينشئ الدولة المصرية الحديثة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ظلت البلاد العربية الأخرى ماعدا المغرب الأقصى خاضعة للعثمانيين.

ولم تكن أي دولة من الدول العربية القائمة الآن موجودة بحدودها الحالية في ذلك الوقت. ولم تتعين لأي دولة عربية غير مصر حدود سياسية معترف بها إلا بعد هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الأولى، وانتصار الإنجليز والفرنسيين الذين حلوا محل الأتراك في البلاد العربية، ووزعوها فيما بينهم، وأعادوا رسم حدودها، وأقاموا فيها ما أقاموه من نظم وأسر حاكمة. وفي هذا المناخ الذي سبق الحرب الأولى وتلاها ظهرت فكرة العروبة، وارتفع شعار الوحدة العربية كرد على استبداد الأتراك وتعصبهم وتخلفهم من ناحية واستعمار الأوروبيين واستغلالهم وعدوانيتهم من ناحية أخرى، فمن الطبيعي أن يكون تجاوب المصريين مع هذا الشعار ضعيفا آنذاك، فلم يلهج به إلا بعض الشعراء والكتاب في بعض المناسبات. هذا الموقف السلبي له أسباب وجذور منها: أن مصر لم تكن هدفا قريبا للهجرات العربية كما كانت بلاد الشام والرافدين. وقد تعربت مصر وبلاد المغرب بالإسلام، وعرفت العروبة عن طريقه، على حين

www.alkottob.com

كانت بلاد المشرق مسرحا لنشاط القبائل العربية قبل الإسلام بقرون طويلة. بل أن هذه القبائل التي استوطنت بلاد الشام قبل الإسلام دخلت في المسيحية، وظل بعضها على دينه حتى الآن، فلم ترتبط العروبة بالإسلام في هذه البلاد كما ارتبطت به في مصر والمغرب.

وفي الوقت الذي ارتفع فيه شعار العروبة في بلاد الشام والعراق في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان النشاط الثقافي والسياسي المصري قد سبق مثيله في البلاد العربية الأخرى بخطوات واسعة، وكان شعور المصريين بمصريتهم أقوى بكثير من شعورهم بعروبتهم، بل إن نظرة المصريين للعروبة لم تكن تخلو من توجس ونفور، لأن العروبة كانت لاتزال مختلطة عندهم وعند غيرهم بالبداوة. ولم تكن سمعة البدو حسنة، من هنا لم يكن المصريون عروبيين، وكان العروبيون المصريون إلى أواخر الخمسينيات قلة من المثقفين الذين اعتبروا الوحدة العربية ضرورية لمقاومة الاستعمار الغربي، واستعادة فلسطين، وتحقيق التقدم دون انحياز لأحد المعسكرين المتصارعين آنذاك، كما وجد هؤلاء المثقفون في اشتراكية القوميين العرب بديلا عن اشتراكية الماركسيين الذين كانوا يبشرون بالأممية، وينظرون إلى الوحدة القومية بترفع وارتياب!

ولقد كنت واحدا من هؤلاء العروبيين المصريين. ولعلي كنت معدودا فيهم من المتحمسين المفتونين، لأن العروبة لم تكن بالنسبة لي مجرد مشروع سياسي، بل كانت مشروع حياة. كانت عقيدة شاملة أملت على قراءتي وكتابتي، أفكاري وأحلامي، صداقاتي وخصوماتي. أكثر من خمس وعشرين قصيدة نظمتها في العروبة، وعشرات من المقالات، وكتاب دافعت فيه عن عروبة مصر.

www.alkottob.com

ويـوم أعلن جمال عبد الناصر وشكري القتلى وحدة مصر وسوريا مـن شرفـة مجلس الـوزراء في شارع قصـر العيني خرجـت مبكرا من منـزلي القريب لانضـم للجمهور الذي تجمع تحت الشرفـة ليستمع إلى هذا الإعلان التاريخي.

ويـوم وقـع الانفصال كنـت في دمشق ضمـن الشعـراء المصريين الذيـن كانوا يشاركـون في مهرجان الشعر ذلك العـام، وقدت مظاهرة مـن السوريين المؤيدين للوحدة كان الزميل الأستاذ مكرم محمد أحمد ضمن شهودهـا.

من المتوقع إذن أن يفاجأ بعض القراء حين يروننني أقول اليوم ما أقوله عن الأمة العربية، فمن واجبي أن أشرح لهم أسباب هذا التحول، لا لأقنعهـم بما أقـول، بل لأبين لهم كيف اقتنعت أنا بأن الأمة العربية لم تولد بعد، ولم توجد من قبل إلا حلما طوباويا، أو مشروعا سياسيا لم نفكر فيه كما يجب، ولم نعمل من أجله كما يجب. وربما كانت أعمالنا نقضـا له وخروجـا عليه وابتعادا عنـه. بل هي كذلك بـكل تأكيد. فقد كانـت الوحـدة العربية مطلبا لكل العرب أو لمعظمهـم منذ أربعة عقود أو خمسـة، وهي لم تعد الآن كذلـك، وكان هذا المطلب قريبا ممكنا منذ أربعة عقود أو خمسة، وهو الآن لم يعد قريبا، ولم يعد ممكنا. فإذا كانت الوحـدة العربية قد أصبحت مستحيلة، أو شبـه مستحيلة، أو بعيدة في أقل تقدير، فالأمة العربية لم تتكون إذن بعد، لان الأمة لا تتكون، أو لا يكتمـل وجودها ولا يتحقق إلا بالدولة. فـإذا كنا قد عجزنا حتى الآن عـن بناء هذه الدولة الواحدة، كما عجزنا عن بناء اقتصاد مشترك، بل عجزنـا عن تحقيق الحد الأدنـى من التنسيق والتضامـن إزاء الأخطار والتحديـات التـي نواجهها فنحن لسنـا أمة واحـدة، أو بتعبير أدق، لم نصبح أمة بعد.

www.alkottob.com

نعـم، هنـاك عواطف قومية تجمع بين العرب جميعا من المحيط إلى الخليـج، وقد عـبرت هذه العواطف عـن نفسهـا في كل المناسبات، ولا تـزال تعبر عـن نفسها كما رأينا في المظاهـرات الحاشدة التي تفجرت في كل البـلاد العربية احتجاجـا على العدوان الأمريكـي على العراق، غير أن هذه المظاهرات إذا كانت دليلا على وجود عواطف عربية، فهي ليسـت دليلا على وجود أمة عربية. وقد تظاهر العالم كله ضد العدوان الأمريكي على العراق فكانت هذه المظاهرات دليلا على وجود عواطف إنسانية مشتركة، ولم تكن دليلا على أن العالم أصبح أمة واحدة. صحيح أن العرب يشعرون على نحو ما بأنهم ينتمون لكيان مشترك، ولكن هذا الكيـان ليس أمة واحدة بالتأكيد، أو لم يصبح أمـة بعد، لأن الأمة لها شكل تتحقق فيه وهو الدولة التي نجدها في البلاد العربية دولا متعددة تتصادم وتفترق أكثر مما تتضامن وتتفق، فإذا كان العرب أمة واحدة كما يزعمون فلماذا لم يقيموا هذه الدولة؟ ولماذا لم يبدأوا حتى في إقامة نواة لها؟ ولمـاذا أهدموا ما بنوا؟ ولماذا لم يوحدوا الاقتصاد إذا كانوا عاجزيـن عن توحيـد السياسة؟ بل لماذا لم يحافظـوا على ما كان لهم مـن ثقافة جامعة حولتها السياسـات المتصارعة إلى ثقافات متعددة متباعـدة؟ الآن لا توجـد سـوق عربية للكتاب، ولا سـوق عربية للفيلم. ولا يوجد برنامج مشترك للتعليم، ولا برنامج مشترك للتعريب، واللغة الجامعـة، وهي الفصحى، تتراجـع الآن في كل الأقطار العربية، وتحل محلها عامية العوام، وإنجليزية المثقفين أو فرنسيتهم!

لكـن العرب يستطيعون مع هـذا أن يصبحوا أمـة واحدة، بشرطين: الأول أن يعترفـوا بأنهـم ليسوا كذلـك الآن، والآخـر أن يعملوا ليكونوا كذلك في المستقبل.

أريـد أن أقـول: إنني في حديث الأربعاء الماضـي لم أكن أهدم بناء

www.alkottob.com

قائما، بل كنت أدعو إلى إقامة البناء الذي لم يقم بعد!

ولست أظن أني فاجأت أحدا بما قلت في الأسبوع الماضي، فأنا أراجع نفسي، وأعيد فحص أفكاري منذ ثلاثين عاما على الأقل. أما هؤلاء الذين يعتقدون أن كل ما كان في نظرهم ظل صحيحا حتى الآن، فهنيئا لهم هذا النعيم المقيم.

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم!

www.alkottob.com

الأستاذ هيكل
وأزمة المثقفين!
(١)

يحق للأستاذ محمد حسنين هيكل أن تمتلئ نفسه بالرضا الذي تمتلئ به نفس الإنسان حين يبلغ غايته، ويؤدي رسالته، فتحل ببدنه المتعب تلك الراحة العذبة البليلة جزاء وفاقا على ما بذل من جهد وعرف من عناء.

نعم، فمنذ بدأ هيكل طريقه في أربعينيات القرن العشرين وهو فيه لم يرس حتى الآن، وإن ظن أن أوان الرسو قد آن. وهو منذ بدأ هذا الطريق الطويل لم يكف عن مصارعة الأمواج ومغالبة العواصف. فإن كان في مرحلة من المراحل قد وجد الريح مواتية، فهو في بقية المراحل لم يجدها كذلك. فضلاً عن أن المتاعب التي يلقاها مثل هيكل في مثل الظروف التي عمل فيها لا تأتي من حوله فحسب، بل تأتي من نفسه أيضاً. والحماية التي يجدها صاحب الرأي في كنف زعيم مطلق السلطان لا يمكن أن تكون مضمونة إلا بحسن الظن وهو غير مضمون.

لهذا لم يشعر هيكل بالراحة، ولم يعرف الاسترخاء، فهو الآن وقد بلغ الثمانين في حاجة إليهما، وهو يستحقهما. لكنه لن يستطيع أن

www.alkottob.com

ينصرف كما أزمع. وأين ينصرف، وهو لا يملك إلا أن ينظر ورائه وينظر أمامه، أن يتذكر ويتوقع؟ ونحن لا نستطيع بعد أن نحتفل معه بثمانينه الحافلة إلا أن نفعل فعله، فنتذكر ونتوقع، ونراجع أنفسنا ونراجعه، ونسائلها ونسائله ؟

إن الفعل الإنساني، والكتابة بالذات، حياة متصلة وسيرورة دائمة. وظيفة الكتابة أن تحفظ الفعل الإنساني ، وتنقله من دائرة الفاعل المحدود بذاته وزمانه ومكانه إلى دوائر أوسع. الأمة وتاريخها، والبشر وتاريخهم.

ولقد اتصلت سيرة محمد حسنين هيكل بسيرتنا جميعاً خلال العقود الستة الماضية. وربما قلت إنه شارك في صنع هذه السيرة بطريق مباشر أو غير مباشر، فمن حقنا اليوم أن نراجع عمله، وأن ننظر فيما صنع. لأنه لم يكن يكتب لنفسه، ولم يكن يفكر في سره، بل كان يكتب لقرائه ويختار لهم أيضاً، وسواء انصرف أو لم ينصرف فهو حاضر موجود.

وأنا لم أعرف الأستاذ هيكل إلا من بعيد. فقد بدأت حياتي العملية بعده بعشرة أعوام على الأقل، وذلك في رزو اليوسف، وهي دار صحفية تختلف عن أي دار أخرى. والعمل فيها لا يشبه العمل في سواها فضلاً عن أن نشاطي كصحفي كان متواضعا جداً بالقياس إلى نشاطي كشاعر، ومن هنا المسافة التي باعدت بيني وبين الأستاذ هيكل الذي كان يتربع على عرش الصحافة المصرية إلى أوائل السبعينيات حين رحلت إلى باريس لأبقى حتى نهاية الثمانينيات، ثم أعود وقد اختلفت الظروف، وترامت المسافات، وأضيفت لأسباب البعد أسباب جديدة.

ولكنني كنت واحدا من الجمهور الواسع الذي كان يقرأ لهيكل مقالته الأسبوعية صباح كل جمعة بين أوائل الستينيات وأوائل

www.alkottob.com

السبعينيات. وأظن أن الأستاذ هيكل كان يقرأ ما كان ينشره "الأهرام" في تلك السنوات من شعري. واذكر بهذه المناسبة أنه رفع من الصفحة الأدبية قصيدة من قصائدي كان الدكتور لويس عوض قد قرر نشرها، فجمعت بالفعل وطبعت حتى قرأها هيكل فرفعها قبل ساعات قليلة من صدور العدد.

والقصيدة التي أتحدث عنها هي "الدم والصمت"،/ وقد كتبتها عن حرب اليمن سنة ١٩٦٣، حين كانت السلطات المصرية تلزم الصمت إزاء الخسائر التي نتكبدها في هذه الحرب. وإذا كنت قد شعرت بالحزن لأن القصيدة لم تنشر، فقد تفهمت الأسباب التي أملت على هيكل أن يرفعها من الصحيفة. كانت حرب اليمن قد أثارت خلافاً داخل السلطة، وكان الإعلان عن الخسائر يحرج عبد الناصر، الذي كنا نلتف جميعاً من حوله في ذلك الوقت. ولهذا لم أتهم هيكل ، ولم أعتبر منعه للقصيدة عدوانا مقصودا على حرية التعبير، فأنا لم أقل فيها ما قاله توفيق الحكيم ونجيب محفوظ في " السلطان الحائر" و" اللص والكلاب" و" ميرامار" وسواها من الأعمال الأدبية التي كانت تنقد النظام وتشكك في شرعيته، ومع ذلك تحمس لها هيكل، ونشرها في "الأهرام" على مسئوليته. وأذكر بعد ذلك أن الأستاذ كمال الحناوي رئيس تحرير "الجمهورية" في ذلك الوقت، ووكيل مجلس الأمة من بعد، اطلع على القصيدة واستأذن السلطات في نشرها فأذنت له.

وقد أسعدني الحظ بلقاء الأستاذ هيكل في عدة مناسبات في القاهرة. قدمني له الدكتور لويس عوض في حفلة أقامها "الأهرام" للمستعرب الفرنسي الأستاذ جاك بيرك في فندق شبرد. وفي أواخر السبعينيات صدر لي كتاب عن عروبة مصر، ويظهر أن الأستاذ هيكل اطلع عليه وأبدى رغبته في أن نلتقي خلال زيارة قام بها آنذاك للعاصمة

www.alkottob.com

الفرنسية، وقد سرني أن ألبي الدعوة وأزوره في الفندق الذي كان ينزل فيه. غير أن المعرفة الشخصية ليست شرطا للكتابة عن هيكل أو عن غيره من حملة الأقلام، لأني لا أريد أن أكتب هنا عن شخصه، وإنما أريد أن أكتب عن رأي له في المثقفين المصريين عبر عنه في سبع مقالات نشرها في "الأهرام" عام ١٩٦١، وأعاد نشرها الأستاذ جمال الغيطاني في مجلة " أخبار الأدب" في أواخر الشهر الماضي تحت عنوان "أزمة المثقفين"، مشاركة من المجلة التي يرأس تحريرها في الاحتفال ببلوغ الأستاذ هيكل عامه الثمانين. وأنا من ناحيتي أشارك في هذا الاحتفال بمناقشة الآراء التي عبر عنها الأستاذ هيكل في هذه المقالات، فلم تسنح الفرصة لمناقشتها عند ظهورها قبل أربعين سنة، كما تسنح الآن، فضلاً عن أن مناقشة الرأي بعد أن دخل امتحان الزمن جديرة بأن تكشف لنا مالا تستطيع أن تكشفه قبل أن يدخل هذا الامتحان.

ولست أظن أن الظروف –التي كانت سائدة في أوائل الستينيات– كانت تسمح بإدارة حوار موضوعي أو مناقشة جادة متكافئة حول الموضوع الذي أثاره الأستاذ هيكل في هذه المقالات، وهو موقف المثقفين المصريين من حركة الجيش ومن النظام الذي أقامه الرئيس عبد الناصر. وإذا كان الأستاذ هيكل قد رأى أن المثقفين المصريين قد عجزوا –بسبب انتماءاتهم الطبقية وتطلعاتهم الاجتماعية– عن الالتحام بالجماهير قبل أن يقوم الجيش بحركته، كما عجزوا عن التجاوب مع النظام الجديد الذي جاءت به الحركة فحقق ما عجز المثقفون عن تحقيقه، وملأ الفراغ الذي تركوه، وتبنى مطالب الجماهير، وقاد النضال الشعبي. إذا كان الأستاذ هيكل قد رأى هذا الرأي فقد وجد المجال مفتوحا أمامه ليشرح رأيه، ويقنع القراء

www.alkottob.com

بوجهة نظره، وهذا ما لم يكن متاحاً للمثقفين المصريين الذين كان يعنيهم، لأنهم لم يكونوا يستطيعون في ذلك الوقت العصيب أن يقولوا: بل النظام الجديد هو الذي يحول بينهم وبين الالتحام بالجماهير، وإلا فكيف يكون هذا الالتحام، والتنظيمات الحزبية ممنوعة، والرقابة مرفوضة، والمنابر كلها تحت سيطرة الدولة، ومحمد مندور ممنوع من السفر، ولويس عوض، ومحمود أمين العالم، وصلاح حافظ، وحسن فؤاد، وجمال كامل، ومحمود السعدني ، وعشرات غيرهم أو مئات لا يستطيعون حتى قراءة مقالات هيكل. فضلاً عن أن يناقشوها، لأنهم في ذلك الوقت الذي كانت تنشر فيه هذه المقالات، يونيو، ويوليو ١٩٦١، كانوا معتقلين في الواحات!

لا أريد أن أقول إن الوقت لم يكن مناسبا لنشر هذه المقالات، وفي تقديري على العكس، أن هذه الظروف القاسية هي التي دفعت الأستاذ هيكل لكتابة مقالاته، علها تكون بداية لنقاش مثمر بين النظام والمثقفين يتسع فيه صدر كل من الطرفين للآخر، وينتفع بذلك النظام فينفتح على الديمقراطية، وينتفع المثقفون فينفتحون على النظام ويتبنون مشروعه وينخرطون في العمل لتحقيقه.

غير أن هذه المقالات التي كتبها الأستاذ هيكل عما سماه "أزمة المثقفين" لم تناقش حتى الآن كما يجب وهانحن نقرأها من جديد في " أخبار الأدب" فنجدها، كما قرأناها حين نشرت قبل اثنين وأربعين عاما لم يتغير فيها حرف، فهل نفهم من هذا النشر الجديد أن الأستاذ هيكل مازال يفهم موقف المثقفين المصريين من جماهير الشعب ومن حركة يوليو، كما كان يفهمه في أوائل الستينيات أم أن الأستاذ هيكل لم يكن على علم بأن مقالاته عن "أزمة المثقفين" سيعاد نشرها، ولهذا لم تتح له الفرصة لإعادة النظر فيها؟

www.alkottob.com

وقد ذكرت " أخبار الأدب" أن هذه المقالات جمعت في كتاب وطبعت مرة واحدة لم تتكرر، فهل يعني هذا أن الأستاذ هيكل لم يعد يراها معبرة عن رأيه في موقف المثقفين المصريين من حركة يوليو التي فقدت شبابها، وانقلبت على نفسها فمن المنطقي أن نعيد النظر في فهمنا لموقف المثقفين منها. وهل تكون حركة يوليو التي انتهت إلى ما انتهت إليه في يونيو ١٩٦٧ هي حركة يوليو، كما كانت في يونيو ١٩٦١ حين كتب الأستاذ هيكل مقالاته؟!

ومع أن كل شئ تغير في بلادنا وفي العالم، فما زالت هذه النظرة التي عبر عنها الأستاذ هيكل تجاه المثقفين سائدة مؤثرة ومازال المثقفون المصريون مستبعدين كما كانوا في الستينيات، يسمح لهم بأن يكونوا مهنيين محترفين، ولا يسمح لهم بأن يكونوا مفكرين، فمكانهم في المؤخرة لا في المقدمة، في الهامش لا في القلب. وهذه هي الأزمة الحقيقية. إنها ليست أزمة المثقفين وحدهم، وإنما هي أزمة المجتمع كله، أزمة العمل الوطني الذي يواجه مشكلات القرن الماضي ونظمه ومؤسساته. وإذن فلا بد من المراجعة. مراجعة الفكرة، ومراجعة الواقع.

www.alkottob.com

الأستاذ هيكل وأزمة المثقفين! (٢)

اتصل بي الأستاذ جمال الغيطاني مشكوراً ليجيبني عن التساؤلات التي أنهيت بها مقالتي الأخيرة حول موقف الأستاذ محمد حسنين هيكل من إعادة نشر مقالاته عما سماه "أزمة المثقفين" في مجلة "أخبار الأدب" وقد كنت في انتظار هذا الجواب لأعرف منه حقيقة الرجل الذي أناقشه هل هو هيكل القديم الذي كتب هذه المقالات ونشرها، وهو لا يزال حديث عهد بالشباب مفتونا معتزا بمكانه من عبد الناصر الذي كان هو الآخر في قمة مجده وذروة شعبيته، لم يمتحن نظامه بما امتحن به في انفصال سوريا عن مصر، وفي حرب اليمن، وفي هزيمة ١٩٦٧؟ أم هو هيكل المجرب الحكيم الذي يطل الآن على ماضيه وماضينا من فوق ثمانين حجة عرف حلوها ومرها، ورأى حوادثها كيف بدأت وكيف انتهت، وأبطالها يوم صعدوا ويوم سقطوا؟

هل نناقش مقالات هيكل باعتبارها أثرا من عهد مضى وانقضى، أم نناقشها باعتبارها موقفا ثابتا من المثقفين المصريين لا يزال الأستاذ هيكل يتبناه ويدافع عنه؟ ولقد أبلغني الأستاذ جمال الغيطاني

www.alkottob.com

أنــه أعــاد نشر مقــالات الأستاذ هيـكل دون أن يطلـب الإذن منه، لكن الأستــاذ هيـكل لم يعترض حـين وجدهـا منشورة، بل غـيَّر عن سروره ورضــاه، وإذن فهو لم يغير رأيه في المثقفين المصريين، فمن حقنا أن نناقشه كأنه كتبها اليوم.

بل نحـن نستطيع اليوم أن نفهم الظروف التــي أملت عليه كتابتها قبـل أربعين عاما، ولا نستطيع اليوم أن نجد سببا لإعادة نشرهـا دون توضيـح أو تعديل، إلا أن يكون المقصود مـن إعادة النشر أن نراجعها ونناقشهــا من جديـد، نحن ومعنا الأستاذ هيكل الـذي لا يستطيع أحد أن يقول إن موقفه من المثقفين المصريين الذين عارضوا عبد الناصر وطالبوا بالديمقراطية كان موقفه وحده. لقد كان موقفا شائعا انساق إليه الكثيرون، ومن ضمنهم بعض كبار المثقفين، في ذلك الوقت الذي كان فيه ولاؤنا لعبد الناصر فوق كل ولاء، وكانت ثقتنا في المستقبل الذي يعدنا به تهون علينا التضحية بالمعارضين وتحجب عنا الكوارث المتلاحقة التي ستجرها علينا الدكتاتورية.

ومــن هنــا لا أناقش الأستاذ هيكل وحده، برغـم مكانه الفريد قرب السلطــة أو فيها، وبرغم الامتيازات التي لم يتمتع بها سواه، بل أناقش نفسي وجيلي أيضا، وأناقش هذا التاريخ الذي تواطأنا على أن نتجنب الحديـث فيه، إنه تاريخ أليم، نخاف مـن مواجهته، فنتجاهله، وتنغلق عليــه صدورنا ليزودنا بمــا نحتاج إليه من أوهام وأكاذيب نلجأ إليها لنهرب من وعينا، ونتخلص من حريتنا ومسئوليتنا.

نحـن في حاجــة ماســة ملحــة لأن نراجع هـذا التاريـخ ونناقشه، لنعرفه على حقيقته، ونعترف بدورنا فيه، فنتطهر من شعورنا بالذنب والتقصير، ونصحح ما وقعنا فيه من أخطاء، ثم نستأنف طريق النهضة خفافا، وقد أصبحت أخطاؤنا دروسا وعثراتنا خبرات وتجارب.

www.alkottob.com

يـرى الأستـاذ محمد حسنين هيـكل أن علاقـة المثقفين المصريين بنظـام يوليو كانت علاقة متوترة متأزمة، لأنها مرت بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٦١ بثلاث أزمات متتابعة الأولى حين طالب المثقفون الجيش الـذي استولى علـى السلطة ليلة ٢٣ يوليو بالعـودة إلى ثكناته، بعد أن نجـح في طرد الملك، وأصبح في استطاعتـه أن يسلم السلطة للمدنيين. والثانيـة حين طالبـوا بإطلاق حرية النشـاط السياسي وإعادة الحياة النيابية، والأخيرة حين اعترضوا على تعيين العسكريين في المؤسسات والشركات، وطالبـوا بـأن يكـون العمـل فيهـا مقصورا علـى الخبراء والفنيين.

لكـن الأستـاذ هيـكل يشك في الدوافـع التـي أدت بالمثقفـين إلى معارضـة نظـام عبد الناصـر ولا يسلم بـأن الديمقراطية هـي السبب في تـأزم العلاقـة بين الطرفين وهو في هذا منطقي مـع نفسه، لأنه لو سلـم بذلك لسلم بأن نظام عبـد الناصر غير ديمقراطي، وإذن فمن حق المثقفين أن يعارضوه. ومن هنا كان على الأستاذ هيكل أن يبحث عن سبـب آخر يقترحه لهذه العلاقـة المتأزمة. وقد وجد بغيته في الصراع الطبقي الذي جعله مسئولا عن أزمة المثقفين.

قـال : إن مطالبـة المثقفين بعودة الجيش إلى ثكناته لم تكن بداية الأزمـة وإنمـا كانت هـذه الأزمـة قائمة قبـل يوليو، متمثلـة في عجز المثقفين عن قيادة النضال الشعبي، وقد أدى هذا العجز إلى فراغ ملأه ضبـاط يوليو الذين تجـاوزوا وظيفتهم الأصليـة، فليست وظيفتهم أن يقـودوا الجماهـير، لكنهم اضطروا اضطرارا لذلـك، لأن المثقفين تخلوا عـن أداء هـذا الواجب حـين انفصلوا عـن الشعب، وأصبحـوا "يكونون طبقـة لهـا مصالحها المتميزة عن مصالـح الجماهير"، على حين بقى الاتصال مفتوحا. لا نـدري كيف؟! –بين هذه الجماهير وبين الضباط

www.alkottob.com

الشبـان الذين استولوا على السلطة "لا تعوقه مصالح طبقة، ولا تصده انتهازية أو سلبية"؟!

هكـذا قفز الأستاذ هيكل قفزة بـارعة خـرج بها من جاذبية الشعار الـذي رفعـه المثقفـون، وهـو الديمقراطية التـي استمدوا منهـا حقهم الشرعي في معارضة النظام، وأوقفوا بها خصومهم موقف المغامرين الخارجـين علـى القانون والدستـور. فـإذا بالأستاذ هيـكل وقد انتقل فجـأة فأصبـح على يسارهـم، يتكلم لغـة ماركس ولينـين، ويقول إن الديمقراطيـة ليست هـي قضية المثقفين الحقيقيـة، وإنما قضيتهم هي امتيازاتهـم ومصالحهـم الطبقيـة، ورغبتهم في الاستئثـار بالوظائف والمناصب. وهكذا أصبح المثقفون بهذه الأطروحة الماركسية مدافعين لا مهاجمين، وصار عليهم أن يثبتوا ولاءهم للطبقات الكادحة بدلا من أن يثبت النظام ولاءه للديمقراطية. ولم تكن هناك وسيلة لإثبات الولاء للكادحـين إلا إثبات الـولاء للزعيم الأوحد الـذي كان يمثل الكادحين، ويفكـر فيهم، ويتكلم ويعمـل نيابة عنهم، ولم يمكـن إثبات الولاء لهذا الزعيم إلا أن نذوب فيه .. ونفنى!

وهـل صحيح أن المثقفـين المصريين طبقة لها مصالحها المتميزة عـن مصالـح الجماهير؟ من المؤكـد أن المثقفين ليسوا عمـالا، وليسوا فلاحـين. لكن مصالحهـم لا يمكـن أن تتناقض مع مصالـح الطبقات الكادحة.

وكيـف تتناقض مصالح الكتاب، والفنانين، والصحفيين، وأساتذة الجامعـة، والأطبـاء والمهندسـين، مـع مصالـح العمـال والفلاحـين؟ نفهـم أن يستغـل أصحاب المصانع عمالهـا، وأن يستغل ملاك الأرض أجراءهـا أمـا الشاعـر فلا يستغل غـير قريحته، والعـالم لا يستغل غير عقله،والطبيب لا يستغل غير خبرته، فإذا كانت الماركسية تقول إن لكل

www.alkottob.com

طبقة مثقفيها الذين ينطقون باسمها، ويعبرون عن مصالحها فالمعنى المستخلص من هذا القول هو أن المثقفين ليسوا طبقة متميزة مستقلة، بل هم شرائح تنتمي لطبقات مختلفة، وإن كانوا عامة ينتمون للطبقة الوسطى أو لشرائح منها لا يمكن أن تتناقض مصالحها وإن اختلفت مع مصالح الجماهير.

وأنا لم أفهم أن ينكر الأستاذ هيكل على المثقفين، ما اعترف به لضباط يوليو. فقد رأى أن مصالح المثقفين فصلتهم عن الجماهير، أما الضباط فقد بقى اتصالهم بهذه الجماهير مفتوحا. لماذا والفئتان تنتميان لطبقة واحدة؟ وربما كان الضابط أقرب إلى المستويات العليا في الطبقة الوسطى من المثقفين.

وإذا كان المثقفون المصريون قد انعزلوا عن الجماهير، وتخلوا عن دورهم في قيادة النضال الشعبي، فمن الذي ثقف ضباط يوليو، وفتح أمامهم الطريق إلى الجماهير؟

من المؤكد أن حركة الجيش لم تكن مقطوعة الصلة بالحركة الثقافية. وتنظيم الضابط الأحرار كانت له ارتباطاته المختلفة بالتيارات الفكرية والسياسية التي كانت موجودة في المرحلة التي ظهر فيها. ومن المعروف أن أوائل الضباط الأحرار كانوا أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين، بل كانوا أعضاء في الجهاز الخاص لهذه الجماعة. وقد أقسموا بين يدي الشيخ حسن البنا "في الغرفة المظلمة على المصحف والمسدس على أن يطيعوه في المنشط والمكره" وفي مقدمة هؤلاء الضباط جمال عبد الناصر، وعبد المنعم عبد الرؤوف، وكمال الدين حسين، وحسن إبراهيم.

ولقد كان عدد من الضباط الأحرار، ومن الذين قاموا بأخطر الأدوار ليلة ٢٣ يوليو أعضاء في تنظيمات شيوعية، ومن هؤلاء خالد محيى

www.alkottob.com

الدين، ويوسف صديق.

وحركة الجيش لم تخترع ما تبنته من برامج، وما رفعته من شعارات تحقيق الجلاء، وتحديد الملكية الزراعية، وتأميم قناة السويس، والبعد عن الأحلاف العسكرية، وتصنيع البلاد، والدفاع عن حقوق الطبقات الكادحة، وزيادة أجور العمال والأجراء، وتخفيض ساعات العمل، وإقرار حقهم في الإضراب، والتأمينات الاجتماعية والصحية.. هذه كلها كانت مطالب جماهيرية مرفوعة متداولة، ليس في أوساط الجماعات اليسارية وحدها، بل أيضاً في بعض الأوساط المستنيرة داخل الأحزاب التقليدية، كالطليعة الوفدية مثلا. ولو راجعنا "صوت الأمة" وسواها من صحف الطليعة الوفدية لوجدنا ألف دليل على ما أقول. ونحن نعرف أن المطالبة بتحديد الملكية الزراعية ترددت على ألسنة بعض الشيوخ المحترمين في مجلس الشيوخ، وأن التنديد بالجوع والبطالة كان يحتل الصفحات الأولى في بعض الصحف التي كانت توجه إصبع الاتهام للملك نفسه مهددة متوعدة. ولقد أشار الأستاذ هيكل نفسه في مقالاته التي أناقشها إلى حادث بهوت الذي ثار فيه الفلاحون على أحد كبار ملاك الأرض واعتبره أول شرارة في الثورة على الحرمان.

ومن هم الذين أشاعوا هذه الثقافة، ورفعوا هذه الشعارات وأيقظوا في البلاد هذا الضمير؟

إنهم المثقفون. إنهم الشعراء من أمثال عزيز فهمي ، وكمال عبد الحليم، وعبد الرحمن الشرقاوي. إنهم الكتاب والنقاد والمفكرون من أمثال سلامة موسى، ومحمد مندور، ولويس عوض، وإحسان عبد القدوس. إنهم الفنانون من أمثال سيد درويش، ونجيب الريحاني، وحامد عبد الله، وإنجي أفلاطون.

www.alkottob.com

إنــه طه حسين الـذي كتب "المعذبون في الأرضـ" وعباس محمود العقاد الذي وقف في مجلس النواب يدافع عن الدستور، ويهدد بتحطيم أكـبر رأس في البلاد إذا اعتدى عليه، أي رأس الملك فؤاد، وخالد محمد خالـد الـذي وقف في منتصف القـرن العشرين يهز بـلاده ويستنفرها بالسـؤال تلـو السؤال، فلماذا؟ لمـاذا تدمي أرضها بآثـار أقدام الغزاة، وظهـور بنيها بسيـاط العتاة، كما قال في مقدمـة كتابه "مواطنون لا رعايـا" لماذا يحرمها الاستغلال من لقمتها؟ ولماذا يحرمها الاستبداد من حريتها ؟ وإلام يذل أهلها، ويعز فيها الغرباء؟

هـؤلاء هم المثقفون المصريون. وهذا هـو المناخ الذي مارسوا فيه نشاطهـم. مناخ تعرضـوا فيه للقمـع، والمنع، والتشهـير، والمصادرة. ولكنـه لم يكن خاليا مـن مؤسسات ديمقراطية مكنتهـم من أن ينشئوا ثقافـة مصريـة عصريـة تغلغلـت في حياتنـا، ومثلت روحنـا وتبنت مطالبنـا، وبلغـت مع ذلـك مستوى عاليا مـن النضـج والإتقان. كيف لا يدافـع المثقفـون المصريون عـن هذه الثقافة وعن هـذه المؤسسات الديمقراطيـة؟ فـإذا لم تكن هذه الديمقراطية قـد نضجت أو اكتملت في المرحلة التي سبقت يوليو، فالعلاج الناجع هو المزيد من الديمقراطية، كمـا كان المثقفـون يريـدون، وليس المزيد مـن الاستبـداد. كما حدث بالفعـل وإذا كنا لم نفهم هـذا الدرس جيداً في عام ١٩٦١، فقد فهمناه في عـام ١٩٦٧ جيداً جداً! وأحـرى بنا أن نفهمه الآن. كما لم نفعل من قبل.

www.alkottob.com

الأمة الحرة..
والمثقف المستقل!

ونحن نتحدث عن المثقفين العرب وأزماتهم، وما يتعرضون له من ألوان الترغيب والترهيب، والضغط والابتزاز، وما يقعون فيه من أخطاء ويسقطون من سقطات.. علينا ونحن نتحدث في هذا الموضوع أن نتذكر جملة من الحقائق والأفكار التي أرجو أن تكون محل اتفاق. إن المثقفين الذين نقصدهم هنا ليسوا محصورين في الشعراء والكتاب والمفكرين والفنانين وسواهم ممن يشتغلون بالثقافة وينتجونها، وإنما نتحدث عن المثقفين بالمعنى العام الواسع، أي عن كل من يقوم بعمل أو يشتغل بمهنة أو نشاط يتطلب فيمن يشتغل به قدرا كافيا من المعرفة والحذق والخبرة التي يصح معها أن نعتبره مثقفا. فالسياسي، والاقتصادي، ورجل القانون، والصحفي، والإعلامي، والمهندس، والمعلم. كلهم مثقفون. فإذا كانت مسئولية صاحب القلم أكبر من مسئولية غيره فالحياة المشتركة مسئولية مشتركة في كل الأحوال ننهض بها متضامنين، ونتقاسمها فيما بيننا بقدر ما يتاح لكل فرد فينا من الخبرة والكفاءة والقدرة على الاختيار والتأثير.

إن شعور المثقفين بتضامنهم حافز قوي يشجع كلا منهم على أداء

www.alkottob.com

واجبه، ويهون عليه ما يلقاه في هذا السبيل.

والتضامن الذي يحتاج إليه المثقفون ويستعينون به على أداء رسالتهم ليس مجرد تضامن فئوي أو نقابي، وإنما هو شعور قوي بالأخوة في الوطن، والأخوة في الإنسانية. لكن هذا الطابع الوطني الإنساني للنشاط الثقافي لا يمنع المثقفين من تقوية الصلات التي تجمع بينهم، وتنمي فيهم هذا الشعور الضروري بالتضامن. بل أن قدرة المثقفين على أن يتجمعوا ويتضامنوا حول أهداف اجتماعية وإنسانية مشتركة، وأن يجسدوا وجودهم في كيانات تمثلهم وتوحد قواهم دليل ساطع على أن الثقافة استقلت عن السياسة، وأن المثقفين صاروا أحرارا لا يتبعون أحدا، وإنما يتبعون قلوبهم وعقولهم، ويخدمون قيمهم الإنسانية ومثلهم العليا. أريد أن أقول إن ظهور المثقف المستقل القادر على أن يعيش ويعمل متحررا من ضغوط رجل السلطة وضغوط رجل الشارع معا، مشروط بظهور المجتمع المدني الحديث، أي بخروجه عن أي وصاية سياسية أو دينية، وتحول أفراده من رعية تدين بوجودها للحاكم المؤله أو الحاكم المنزه إلى أمة تعلن عن وجودها بنفسها، وتختار حياتها التي تتفق مع مثلها العليا ومصالحها الحيوية.

ظهور المثقف المستقل مرهون بظهور الأمة الحرة. وأنا أتذكر الآن الكلمة التي رد بها الضابط الوطني الثائر أحمد عرابي على الخديوي المستبد توفيق، يوم خرج عرابي على رأس جنوده، ممتطيا صهوة فرسه، ممتشقا حسامه، يطالب الخديوي في ميدان عابدين بعزل وزير الحربية الشركسي عثمان رفقي، والاستجابة لبقية مطالب الضباط المصريين، فقال له الخديوي: كيف تجرءون على الخروج بالجيش وأنتم عبيد إحساناتنا؟.. فرد عليه عرابي قائلا: لقد خلقنا الله أحرارا،

www.alkottob.com

ولن نستعبد بعد اليوم!

في هـذه اللحظة، أعلـن عرابي قيام الأمة المصرية الحرة. وفي هذه اللحظـة ذاتها، كان الشاعر محمـود سامي البارودي، والكاتب عبد الله النديم، والإمـام المصلح محمد عبده، يعلنون عن ظهور المثقف المصري المستقل.

والأمة الحرة جماعة من المواطنين الأحرار.. وأن نكون أحرارا معنى ذلـك أن نفكر بحرية، وأن نختار بحريـة، وإذن فلابد أن نختلف، ولابد مـع ذلـك أن يقبل كل منا الآخر، لأن وجود الأمـة الحرة ليس مشروطا بتماثـل أفرادها، بـل باتفاقهم على أن يعيشـوا مجتمعين متضامنين، رغم تعددهم واختلافهم.

الحريـة تمنحنا الحـق في أن نختلف ونتعـدد، والمصالح المشتركة تفرضـ علينا أن نحتكم لنظام واحد وقانون واحد، وعلى هذا الأساس تقـوم الثقافـة كمؤسسـة مدنية، ويظهـر المثقف المستقـل كضمير حر يعلـن كلمتـه، ويصـارح برأيه الحـكام والمحكومين. يصـارح الحكام أنهـم هبطـوا مـن عليائهم، وصـاروا بشرا عاديين، فلا هـم آلهة، ولا هـم جبابرة، بل هم مواطنون مثلهم مثـل بقية المواطنين، يصلون إلى السلطـة، لا بـالقوة والإرغـام، ولا بـالحق الإلهي، بل بأصوات الناخبين الذيـن يرفعون مـن يشاءون إلى سـدة الحكم، ويسقطون مـن يشاءون. وكمـا أصبح للمثقف أن يعلـن رأيه في وجه الحاكم، أصبح له أن يعلن رأيـه في وجـوه المحكومين، لأن هـؤلاء المحكومين لم يعـودوا قطيعا يخضـع لصـوت واحد، ويـردده، ويفرضـه على نفسه وعلـى غيره، بل أصبحوا مواطنين يعترفون بحق كل منهم في أن يفكر لنفسه، ويجتهد، ويختلـف عـن الآخرين.. وهكذا لم يعد المثقف مضطـرا لأن يخضع لما كان يسمـى الإجمـاع، وهـو اتفـاق كامل لا يمكـن أن يتحقـق إلا على

www.alkottob.com

البديهيات الواضحة التي لا تقبل الشك أو الجدل، كان يجمع الناس على أن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب، وأن الليل ليل والنهار نهار، وأن اثنين في اثنين تساوي أربعة، أما سن القوانين، واختيار الحكام، ووضع السياسات، وتقويم الأعمال، وتوقع الحوادث، والحكم على النتائج فكلها مسائل تقبل الخلاف والجدل، وتتعدد فيها الآراء والتقديرات، فمن حق المثقف أن يكون له رأيه المستقل، بل هذا هو واجبه لأن رسالته تتلخص في مساعدة الآخرين على اختيار الطرق الصحيحة وتجنب الأخطاء، لا بأن يفكر نيابة عنهم، بل بأن يفتش معهم على الحقائق، ويستعرض معهم مختلف الآراء، ويساعدهم على التفكير المستقل، وذلك عن طريق المناقشة والمراجعة والنقد والتصحيح والطعن والترجيح.

هل نستطيع أن نقول إننا بلغنا هذا المستوى من التحرر والتطور الذي يسمح بظهور المثقف المستقل القادر على أن يعلن رأيه بشجاعة، ويؤدي رسالته نحو أمته ونحو الإنسانية بكفاءة وإخلاص؟

هذا السؤال تجيب عليه هذه الأزمة التي نتحدث عنها الآن. إنها ليست أزمة أفراد من الكتاب والفنانين، كما قد يظن البعض، وإنما هي أزمة الطبقة المتعلمة كلها. هذه الطبقة التي تشكلت في العصر الحديث، دون أن يسمح لها بأن تنتمي له، أو تتمتع بميزاته. صحيح أن هذه الطبقة قادت حركة النهضة وحركة الاستقلال أو لعبت في هاتين الحركتين دورا مؤثرا، لكنها كانت تدين بوجودها للسلطة التي شعرت بالحاجة إليها، فبذرت بذورها الأولى، واستعانت بها في تحقيق مشروعاتها، وإحاطتها برعايتها طالما نجحت هذه المشروعات، فلما فشلت تخلت عنها، ثم اصطدمت بها وحاربتها حين وجدت أنها تنمو وتتكاثر وتصبح خطرا يهدد الاستبداد الموروث. وهكذا تحالفت السلطة

www.alkottob.com

والقـوي التقليديـة ضد هذه الطبقـة المثقفة التي كانـت لا تزال طرية العود، لم تستكمل بعد شروط وجودها وضمانات استقلالها واكتفائها بذاتهـا. ويكفـي أن نقـرأ سـيرة الطهطـاوي لـنرى كيـف أرسله محمد علـى إلى فرنسـا، وكيف عـاد لينشئ المدارس التي أنشأهـا، ويترجم المؤلفات التي ترجمها، ويحتضن المواهب الجديدة التي احتضنها من المترجمين، والمدرسين، والمهندسين، والأطباء، والكتاب، والشعراء، ثم يجـيء عباس الأول ليعصف بهـذه النهضة، فيغلـق المدارس، ويرسل الطهطـاوي إلى السـودان، ويعيد البـلاد إلى ما كانـت عليه في عصور الظـلام. ولقـد تحالـف الملك فؤاد مـع مشايـخ الأزهر ليواجـه مثقفي ثـورة١٩١٩ المتحمسين للديمقراطيـة، والعقلانيـة، والتجديد، وفصل الدين عن الدولة.

ولقـد تحالـف ضبـاط يوليـو عقـب حركتهم مـع جماعـة الإخوان المسلمـين لتواجـه المثقفين الذيـن كانوا يطالبون بالعـودة إلى الحكم المدني النيابي، وفي مقدمتهم الأدباء، والصحفيون، وأساتذة الجامعة، ورجال القانون. وكانت النتيجة في النهاية ما نعرف، فقد تم ترويض المثقفـين، واستخدامهم ومنعهم من أن يتحولـوا إلى سلطة أخلاقية أو مؤسسة مدنية مستقلة، وتلك هي الأزمة التي نعيشها الآن.

غـير أن الحديـث عـن تناقـض المثقفين، وقلـة تأثيرهـم، وتهافت وجودهـم، وتخليهـم عن القيـام بواجبهم في الدفاع عـن الديمقراطية وحماية الحريات العامة يجب ألا يعمم على كل المثقفين.

إن التعميم خطأ بالغ. ولا شك أن هناك عددا من المثقفين المصريين والعرب الآخرين ضربوا أمثلة رائعة في العفة، والشجاعة، والصبر على المـكاره، وتحمـل السجن، والنفـي، والمصادرة، والتشهـير، والتعذيب، والتجويـع تجعـل منهم أبطـالا حقيقيين. وقد تعودنـا أن نذكر في هذا

www.alkottob.com

المجال أسماء بالذات كأنها وحدها التي نستطيع أن نذكرها، والحقيقة أننا نستطيع أن نقدم أسماء كثيرة أخرى جديرة بالذكر والعرفان.

www.alkottob.com

أولئك آبائي!

إذا كان علينا أن نحاسب أنفسنا، ونراجع مواقفنا، ونعترف بأخطائنا ونقائصنا، ونتحمل تبعة أعمالنا، خاصة في زمن العسر، وفي أعقاب التجارب الفاصلة والمحن الكاشفة، فعلينا في المقابل ألا نستسلم لليأس، وألا نهرب من مواجهة الواقع السيئ إلى ما هو أسوأ منه، وهو الخروج من الحياة والسقوط في العدم. بل نحن نراجع أنفسنا لنستنهض قوانا، ونشحذ هممنا، ونتذكر مزايانا، ونتمثل فضائلنا، وهكذا تكون هذه المراجعة واجبا أخلاقيا، وحاجة حيوية في الوقت نفسه.

نحن لسنا ببغاوات مقلدة، ولسنا عبيدا مأجورين، بل نحن بشر أحرار عقلاء، نفكر ونختار، ونسعى للخير، ونقاوم الشر، ونتغلب على الخوف والطمع، ونميز بين الخبيث والطيب؛ لأن حاجاتنا الحيوية تقودنا إلى ما هو حسن بالنسبة لنا، ضروري لحياتنا كأفراد؛ ولأن عقولنا وضمائرنا تدلنا على ما هو حسن في ذاته، وضروري للجنس البشري كله. فبوسعنا إذن أن نتعلم من التجارب الأليمة، وأن نتغلب على الأزمات الطاحنة، ونخرج منها أقوى مما كنا، وأكثر علما وحكمة،

www.alkottob.com

وأشد ثقة بالنفس، وعزما على استئناف السعي وإدراك النجاح. ولقد تحدثنا عن أزمة المثقفين التي كشف عنها الغزو الأمريكي للعراق، كما كشفت عنها أحداث أليمة سابقة توالت علينا منذ أواسط القرن العشرين إلى اليوم، وتتمثل هذه الأزمة في غياب المثقفين أو تهافت وجودهم، وتراجع دورهم، وتبعيتهم للسلطة الحاكمة، وسلبيتهم إزاء طغيانها وتوحشها، وعجزهم عن مواجهة الأطماع الأجنبية، وعن التأثير في الرأي العام العالمي والفوز بتقديره واحترامه، وانتزاع المكان اللائق بهم في المنظمات والمحافل الدولية التي تكافح التمييز والعنصرية والعولمة الأمريكية، والتعصب الديني والعرقي في العالم كله. تحدثنا، وأطلنا الحديث عن هذه الأزمة، ولنا الحق، لأن المثقفين العرب أطالوا غيابهم، وصغروا أنفسهم، واستمرأوا تبعيتهم للسلطة، ونفاقهم لقوى التخلف والتطرف والإرهاب. لكن المثقفين العرب ليسوا نموذجا فردا، ولا سيرة واحدة، وإذا كان فيهم من يمثل الأزمة ويجسدها بكل ما فيها من قبح وصغار ففيهم وجوه نضرة، وسير عطرة، يجب علينا أن نستدعيها اليوم ونلهج بذكرها، لأننا في أمس الحاجة إلى ما تمثله من قيمة، وتنشره من فضيلة، وتضربه من مثل.

ونحن حين نميز بين سيرة وسيرة، وموقف وآخر لا ننسى أن الأزمة التي نتحدث عنها ليست أزمة مناقب أو مواهب يتمتع بها بعض المثقفين ولا يتمتع بها الآخرون، وإنما هذه الأزمة في أصلها ناتجة عن أسباب موضوعية فرضت نفسها فرضا على المثقفين وغير المثقفين، هذه الأسباب الموضوعية يمكن إرجاعها إلى سبب جوهري وداء موروث متوطن، هو وجود الحاكم وغياب المحكومين، أو تبعيتهم له كما يتبع العبد سيده، أو كما يصدر الخلق عن الخالق. وهذا هو

www.alkottob.com

القانـون أو النظريـة التي قامـت عليهـا الدولة في العصـور الوسطي، نظرية التفويض الإلهي، فالإمارة أو المملكة صورة من العالم الكبير. وكما أن العالم قد صدر عن الموجود الأول وهو الله، فقد صدرت المملكة أو الرعية عن الراعي، وهو الملك أو الأمير أو السلطان الذي اعتبر نفسه خليفـة الله وظلـه علـى الأرض، فلا وجـود للرعية ولا صـوت لها ولا دور، لأنهـا ظل الظل، لا تتحرك إلا بمشيئة راعيها، ولا تتكلم إلا بإذنه. هذا الهرم المقلوب الذي كانت فيه السلطة أصلا والأمة فرعا اعتدل في العصور الحديثة، فأصبحت الأمة هي مصدر السلطات.

لكـن هـذا التطور التاريخي الـذي بدأ في الغرب منـذ ثمانية قرون، وظل ينضج على مهل حتى غيّر الواقع كله اجتماعا، واقتصادا، وثقافة، وسياسـة فظهـرت الأمم الحديثـة، وقامت النظم الديمقراطيـة، وأعلنت حقـوق الإنسان. هذا التطور تأخر كثيرا في بلادنا بقدر ما طالت فيها عصور الظلام، فلم يبدأ إلا مع محمد علي الذي خرجت الدولة المصرية الحديثـة مـن عباءته بدلا مـن أن يخرج هو من عباءتهـا. والنتيجة أن القانـون الـذي كان سائدا في العصور الوسطـي عندنا وعند غيرنا من الأمم، ظـل سائـدا في العصور الحديثة عندنا فحسب، لأن محمد علي لم ينشئ جيشـا حديثا فقط، ولم يستورد مصانع حديثة، ولم يبن مدارس حديثة فحسب، بل أنشأ طبقة اجتماعية جديدة من الضباط، والموظفين، والمهندسـين، والأطبـاء، والعلماء، والإداريين الذيـن يدينون للدولة أو لـولي النعم بوجودهم كله، فباستطاعتـه أن يمنحهم، وباستطاعته أن يمنعهـم، وباستطاعتـه أن يمحوهم من الوجود، كما حدث بالفعل أكثر من مرة في القرنين الأخيرين.

أريـد أن أقـول إن نهضتنـا الحديثـة كلها كانت على كـف عفريت، لأنها لم تكن تطـورا طبيعيا هادئا، وإنما تأخرت جدا، وخضعت دائما

www.alkottob.com

لنـزوات الحكام وتقلباتهم. وإذا كانت الطبقات الوسطى في الغرب هي التـي ثارت علـى النبـلاء الإقطاعيين، وقطعـت رقاب الملـوك، وألغت الملكيـات المستبـدة، وأعلنـت الجمهوريـة، وغـيرت النظـم والقوانين، وشجعـت التيـارات العقلانيـة والعلميـة، وفصلـت الدين عـن الدولة، فقـد ظل الهرم المقلـوب عندنا مقلوبا، لأن السلطـة المستبدة هي التي أنشـأت الدولة الحديثة، وهي التـي زرعت الطبقة الوسطي في المجتمع التقليدي، وتبنتها، واستخدمتهـا. وهي التي عصفت بالطبقة الوسطي ومزقتها شر ممزق حين اشتد ساعد هذه الطبقة، وأصبحت قادرة على أن تقول كلمتها، وتلعب في مصر الدور الذي لعبته مثيلاتها في البلاد الديمقراطية.

أزمـة المثقفين إذن ليست أزمة فئـة محدودة، ولا يمكن أن نفسرها بخـوف فلان من السلطة أو بطمع غيره في عطاياها، وإنما هي مرض مـوروث يهدد الجميـع، فلابد أن ينهـض لمكافحته الجميـع، ولابد أن يتغلـب عليه الجميـع. والطريق إلى ذلك هو أن يقف الهرم على قاعدته، وهـو وضـع آن لنـا أن نحققه وأن نستقـر فيه، لأننـا لم نعد في طريق التحديـث مبتدئـين، كما كنا في أول القرن التاسـع عشر، وإنما علمتنا التجـارب، وصهرتنـا الخطوب، ويكفي أن نستعرض تاريخنا الحديث لـنرى ماذا ربحنـا بالديمقراطية، وماذا خسرنـا بالطغيان، ولنتصفح الوجـوه، ونستعرض الأيام والأسمـاء، لنعلم أن الخوف والطمع والقهر والـذل المـوروث لم تستطع كلهـا أن تقتـل روح الديمقراطية في مصر، وأن الليـالي السـود التي غلبت على بعض المراحل والعهود لم تخل من نجـوم ساطعة وصرخات مدوية جبـارة خرقت أسداف الظلمة، وبددت الوحشة، وأحيت الآمال، وحطمت الأغلال.

ولـن يكـون في مقـدوري أن أحصـى هنـا كل الأسمـاء، أو

www.alkottob.com

أشير إلى كل المقالات والقصائد والأغاني والصور والرسوم التي هتف فيها أصحابها للديمقراطية ونددوا بالطغيان. لن يكون في مقدوري أن أحدثكم عما قدمه الطهطاوي، ومحمد عبده، وأديب اسحق، ويعقوب صنوع، ومحمود سامي البارودي، وعبد الله النديم، وطه حسين، وعلي عبد الرازق، وعباس محمود العقاد، وإسماعيل ادهم، ومحمد مندور، وعزيز فهمي، وإحسان عبد القدوس، وأحمد أبو الفتح، وكمال عبد الحليم، ولويس عوض، يكفي أن أذكركم برجل واحد نهض وحده في وقت من الأوقات بما كان يجب أن تنهض به الأمة كلها، هذا الرجل هو الكاتب الشجاع صاحب الصوت المجلجل والقلم الحر المضئ خالد محمد خالد.

وقد تعلم خالد محمد خالد في الأزهر، وحصل على شهاداته، وصار عالما من علمائه، لكننا لا نستطيع مع هذا أن نعتبره مثقفا أزهريا، لأن ثقافته تتجاوز ثقافة الأزهر، وتصوغها صياغة جديدة تستجيب لمطالب الواقع من ناحية، وتطور الفكر الإنساني من ناحية أخرى. وهذا ما أدى بلجنة الفتوى في الأزهر سنة ١٩٥٠ إلى أن تتبرأ منه، وتتهمه بالإساءة إلى الإسلام، وتطالب بمصادرة كتابه الأول "من هنا نبدأ" الذي أعلن فيه أن الأرض لمن يفلحها، وأن مصر لشعبها كله، وليست لحفنة من كبار الملاك.

وكما خاصمه الأزهر في ذلك الوقت، خاصمه الإخوان المسلمون، لأنه كان يندد بتطرفهم، وخلطهم الدين بالسياسة، ولجوئهم لاغتيال الخصوم. وحاربته الدولة لأنه قذف في وجهها بكتابه الثاني "مواطنون لا رعايا"، بعد أن قذف في وجهها بكتابه الأول، فحدد مكانه وثبت موقفه كمثقف حر مستقل، نبع من الفكر العربي الإسلامي ولم يسجن نفسه فيه. واعتنق فكر الاستنارة الأوروبية دون أن يغترب عن ذاته.

www.alkottob.com

واستطاع أن يجعل التراث القومي طريقا إلى التراث الإنساني دون تعسف أو تلفيق.

وخالد محمد خالد الذي حافظ على استقلاله وأبى أن يكون رعية للسلطة الملكية حافظ على استقلاله، وأبى أن يكون رعية للسلطة العسكرية التي قذف في وجهها بكتابه الثالث "الديمقراطية أبدا". وهو العضو الوحيد من أعضاء اللجنة التحضيرية التي دعاها عبد الناصر سنة ١٩٦١ لمناقشة ما قرره من إجراءات لعزل المعارضين له، وحرمانهم من حقوقهم السياسية، هو العضو الوحيد الذي قال لعبد الناصر (لا)، من أعضاء اللجنة الذين بلغ عددهم ٢٥٠ عضوا صفقوا جميعا لقرارات عبد الناصر، مع أن بعضهم كان يعارضها في قرارة نفسه. أما هو فلم يكذب على أحد، ودافع عن حق كل مواطن في أن يتبنى من الآراء ويتخذ من المواقف ما شاء، طالما التزم القانون ولم يخرج عليه. ومن المؤسف أن بعض المثقفين من أعضاء اللجنة لم يكتف بالتصفيق للسلطة، بل حرضها أيضا على خالد محمد خالد، متهما إياه بالدفاع عن أعداء الشعب؟!

لكن خالد محمد خالد لم يتراجع ولم يخف، أو خاف لكنه قهر خوفه وتغلب عليه، وظل يدافع عن الديمقراطية التي تحققت لمصر في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات. يقول للزميل الأستاذ محمود فوزي في حواره معه: إنني أهدم الشعب وأطعنه من الخلف حين أجرده من كل ميزة سياسية قبل ثورة يوليو. أبداً. لقد كان لي آباء أفخر بهم، وشعب أعتز به. عندما فشلت مفاوضات عدلي كيرزون ظلت البلاد بلا وزارة لمدة شهرين، ولم يجد الإنجليز ولا السراي واحدا فقط يقبل تشكيلها، لأن الشعب كان قد فرض بأسه وسلطانه. وعندما استنجد القصر بثروت

www.alkottob.com

باشا قبل بشروط رضى الإنجليز بها صاغرين. أنا ابن هذه الأيام!

وعندما تآمر الإنجليز على دستور الأمة جاء يحيى إبراهيم فرد إلى الدستور كرامته، وأعاد المادة التي حذفت، وهي التي تنص على أن الأمة مصدر السلطات. ولما خضع بعد ذلك لبعض الضغوط الإنجليزية أسقطه الشعب وهو رئيس الحكومة في دائرته الانتخابية. أنا أيضا ابن هذا الشعب!

وعندما أراد الملك فؤاد أن يحطم الدستور ويسافر إلى أوروبا وحده سنة ١٩٢٧ وقف ثروت في وجهه، ولم يكن نبيا من أنبياء الوطنية، بل كان مجرد سياسي وقف في وجه الملك وقال له: هذا عمل ضد الدستور، وأصر الملك على أن يسافر وحده، وناصر سعد زغلول الذي كان في ذلك الوقت رئيسا لمجلس النواب عبد الخالق ثروت رئيس الحكومة، وهكذا اجتمع مجلس النواب، وقرر سحب الاعتماد المالي المخصص لرحلة الملك، فامتثل الملك لحكم الدستور، وعاد إلى رئيس الحكومة ذليلا صاغرا!

أنا ابن هذه الأيام!

وأنا بدوري أتشرف بالحديث عن خالد محمد خالد، ويرف قلبي، وتندي بالدمع عيوني، وأقول: أولئك آبائي!.

www.alkottob.com

ليس دفاعا عن المثقفين!

لم يخفف من وطأة شعوري بالأخطار المحدقة ببلادنا رحيلي عن القاهرة لأشارك في احتفالات الفرنسيين بربيع الشعراء. وربما تضاعف شعوري بهذا الخطر الذي رأيته يهدد الفرنسيين والبشر جميعا كما يهددنا، ويحاصرهم كما يحاصرنا. والفرق الوحيد بيننا وبينهم أنهم يذهبون إلى مصادره، ويتعرفون عليه، ويصورونه كما هو في الواقع، ويقدرون أبعاده، ويناقشون أسبابه، ويحسبون نتائجه، ويرفعون صوتهم ضده، ويستنهضون العالم لمقاومته.

يوم السبت الماضي شاركت في مظاهرة باريسية ضمت أكثر من ثمانين متظاهرا، وفي اليوم نفسه تظاهرت مارسيليا ضد الحرب، وتظاهرت بوردو، كما تظاهر الألمان، والأسبان، والإيطاليون، والأمريكان، والأستراليون، وتصدرت أخبار مظاهراتهم وصورها نشرات الأخبار في الإذاعات والقنوات التليفزيونية في فرنسا وفي غيرها من بلاد العالم.

ولم تكن مهرجانات الشعر التي شاركت فيها، سواء في باريس أو في روان على بعد مائة وخمسين كيلو مترا من العاصمة عن الخطر،

www.alkottob.com

أقصد أنها لم تكن بعيدة عن هذه الهموم السياسية. يكفي أن نعلم أن وزير خارجية فرنسا الحالي دومينيك دوفيلبان كاتب وصاحب قلم معدود، صحيح أن التاريخ خاصة تاريخ فرنسا هو موضوعه الأول، لكنه يكتب عن التاريخ بقلم الروائي أو الرحالة الذي رأى وسمع. وهو شاعر أيضا له قصائد منشورة كما سمعت. وفي الصراع الراهن بين المدافعين عن الشرعية الدولية وفي مقدمتهم الفرنسيون من ناحية والسائرين في ركاب الأمريكان وفي مقدمتهم الإنجليز من ناحية أخرى يرتفع صوت دوفيلبان، ويتميز ببلاغته ومنطقه.

وفي أمسية من أمسيات المهرجان الذي نظمه معهد العالم العربي في باريس في الأسبوع الماضي احتفالا بربيع الشعراء، وشارك فيه أكثر من عشرين شاعرا عربيا وفرنسيا، سخر الشاعر العراقي الأمريكي، أو المهجري، سرجون بولص من المثقفين العرب الذين مازالوا يواصلون ثرثرتهم الساذجة عن الحداثة وما قبلها، وما بعدها، والقطيعة مع الماضي والحاضر، والنصوص المستغنية عن القراء والكتاب، وسواها من الموضوعات التي أكل عليها الدهر وشرب، في الوقت الذي يستعد فيه السيد الأمريكي لتدمير بلادهم، فلا يقف منهم أحد في وجهه، وإنما يتصدى له الشعراء الأمريكيون الذين اجتمع منهم خمسة وخمسون شاعرا في سان فرانسيسكو ليصدروا كتابا يضم ما نظموه في هذه الأيام الأخيرة من قصائد ضد الحرب. وكان سرجون بولص يقدم بهذه الكلمات قصيدته القصيرة التي استوحاها من قصيدة لشاعر ألماني يتحدث فيها عن السيد الموت.

الموت سيد من أمريكا.
جاء إلى أرض الرافدين ليروي عطشه من آبار النفط،
ويسمم آبار الماء.

www.alkottob.com

الموت سيد من أمريكا.
جاء إلى أرض الرافدين ليسد جوعه من لحم الأطفال.

مع اعتذاري لسرجون بولص، لأني لم أتمكن من الحصول على النص المكتوب لقصيدته المنثورة، فاعتمدت على ما احتفظت به ذاكرتي من صورها المرعبة. ومن أطرف الأنباء التي تناقلتها الصحف عن معارضة الشعراء الأمريكيين للسياسة الأمريكية ما قرأناه عن إلغاء البيت الأبيض لأمسية شعرية كانت زوجة الرئيس بوش قد دعت لها عددا من الشعراء الأمريكيين. ربما كانت تحتفل هي الأخرى بربيع الشعراء! والمهم أن هؤلاء الشعراء انتهزوا الفرصة ليقرأوا قصائدهم التي كتبوها في هجاء السياسة الأمريكية. ووجدت السيدة بوش التي تحب زوجها أكثر مما تحب الشعر وأكثر مما تحب الديمقراطية أن الأمسية ستتحول إلى مظاهرة معادية للأسرة الحاكمة فقامت بإلغائها.

وما يحدث في فرنسا والولايات المتحدة يحدث في ألمانيا، وبريطانيا، وأسبانيا، وإيطاليا، وتركيا، واستراليا. وقد ظهرت في الأسابيع الأخيرة مجموعات شعرية تضم ما كتبه شعراء هذه البلاد ضد الحرب. كما نشرت الصحف البريطانية والألمانية والأسبانية مقالات وقصائد تندد بالحرب وبالسياسة الأمريكية لكتاب كبار من أمثال المسرحي البريطاني هارولدبنتر، والروائي الأسباني خوان جويتسولو ومواطنه خافيير مارياس وبإمكانكم أن تعودوا إلى نصوص ما كتبه هؤلاء في الترجمة التي نشرتها مجلة "أخبار الأدب" لمقالاتهم. وقد صدر قبل أيام في باريس، كتاب بعنوان "بعد الإمبراطورية" لكاتب شاب اسمه إيمانويل تود يشرح فيه المأزق الذي وضعت فيه الولايات المتحدة نفسها، إذ أعلنت الحرب دون أن تملك تكاليفها، على عكس ما

www.alkottob.com

حـدث في حـرب الخليـج الأولى ١٩٩١، إذ كانت تنفق علـى حربها من مـال الآخريـن. أما اليوم فهي مضطرة لأن ترشـو الجميع حتى تضمن تعاونهـم أو صمتهم، ومـادامت لا تملك التكاليف فهي مضطرة لتوقيع شيـكات دون رصيـد، وهـي في الحالـين خاسـرة، في الهزيمـة طبعا، وفي النصـر أيضا، لأنها لا تحارب صـدام حسين، بل تحارب الشرعية الدوليـة، أي تحـارب العـالم كله وتخـرج علـى قوانينه، ولهـذا ستظل مطلوبة للعدالة، وستظل ملاحقة، وستظل هدفا للضربات.

هكـذا وجدت نفسي في بؤرة الشعور بالخطـر، وأنا على بعد خمسة آلاف كيلو متر من آبار البترول التي يتلمظ السيد الأمريكي وهو يستعد للنـزول فوقهـا، وأنا متأكد من أن الإيغـال في البعد لن يخفف من هذا الشعـور، فالمظاهـرات التي انطلقـت في واشنطن، وسـان فرانسيسكو، ونيويورك ضد الحرب هي المظاهرات التي انطلقت في باريس، والفرق أن الأمريكيين اعترضوا على الحرب كما يعترض الإنسان على نفسه أو ينكر فعلا قام به أو يعترف بذنب وقع فيه. أما الفرنسيون فقد اعترضوا على الحرب وسخروا فوق ذلك من الرئيس الأمريكي مر السخرية.

في نيويـورك، لم يستطـع الرئيس بوش أن يكسـب لجانبه إلا سبعة عشـر صوتـا في مجلس المدينـة، أمـا بقية الأصـوات وعددهـا واحد وثلاثون، فقـد استنكرت انفراد بوش بالعمل بعيـدا عن الأمم المتحدة، وطالبته بأن يبذل قصارى جهده في الوصول إلى حل سلمي للمشكلة، وألا يلجأ للقوة إلا بقرار دولي حين تكون القوة هي الخيار الأخير.

لكن الفرنسيـين لم يكتفوا برفض الحرب، بل جعلوا اعتراضهم على الحـرب شكلا من أشكال الاعتزاز بتراثهم القومي ومبادئهم الإنسانية. ومادام الأمريكيون يتباهون بحداثتهم على الفرنسيين الذين يمثلون في نظرهـم أوروبا القديمة، فمن حق الفرنسيين أن يردوا الصاع صاعين،

www.alkottob.com

وأن يتباهوا على الأمريكيين بثقافتهم ولغتهم وتاريخهم العريق. والفرنسيون مهرة في اللعب باللغة. واللغة الفرنسية لغة لعوب تستجيب للمواهب الذكية والبديهة الحاضرة التي تجيد اللعب بها، كما فعلت حين أوحت لزعماء المظاهرة الأخيرة أن يلفتوا النظر للعلاقة الشكلية والمعنوية القائمة بين كلمة المذبحة واسم الرئيس الأمريكي. فالمذبحة في اللغة الفرنسية أو المجزرة تكتب هكذا Boucherie، وتنطق هكذا بوشري، كأنها مشتقة من اسم الرئيس الأمريكي الذي يكتب هكذاBush. وقد يذكرنا هذا بالعلاقة التي اكتشفها المصريون بين اسم رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق نيتانياهو والكلمة العربية إياها! لكني في حديثي هذا عن ردود الفعل الأوروبية والأمريكية، سأتوقف عند هذا الحد، وأعود إلى ما بدأته في الأسبوع الماضي حول ردود الفعل العربية، وبالذات حول المأزق الذي يجد فيه المثقفون العرب أنفسهم، وهم يواجهون الاستعداد الأمريكي المحموم لتوجيه ضربة عسكرية للعراق.

وأنا هنا لا أقفز من موضوع إلى موضوع غيره، بل أنتقل بين استجابات وردود مختلفة على فعل واحد. وقد رأينا كيف يواجه العالم الخارجي إصرار الأمريكيين على شن الحرب غير عابئين بأي شرعية دولية، أو بأي منطق مقبول، أو قيمة أخلاقية. فماذا صنع العرب عامة، وماذا صنع مثقفوهم على وجه الخصوص؟ المثقفون العرب جاءوا متأخرين، وبدوا محرجين، لأن الأوروبيين والأمريكيين سبقوهم للاعتراض على الحرب والدفاع عن العراق، ولهذا لم يلفتوا النظر، ولم ينجحوا في الوصول إلى الناس في داخل بلادهم أو في خارجها، لأن حركتهم كانت ظلا لحركة غيرهم، وكان صوتهم صدى لأصوات الأوروبيين والأمريكيين.

www.alkottob.com

والمثقفـون العرب لا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم في هذه الأزمة فيستمـع لهـم الناس، إذ كان الناس قـد انتظروهم في أزمـات سابقة فوجدوهم يلجأون إلى الصمت أو يؤثرون السلامة.

ومهمـا اختلفت مواقف المثقفين العرب إزاء الأزمة الراهنة، فطالب بعضهـم صـدام حسـين بـالاستقالـة، لأنـه السبـب الأول في الكـوارث المتلاحقـة التي حاقت ببلاده، وقـد آن أن يستقيل ليقطع الطريق على الأمريكان ويبطل حجتهم.

ووجد فريق آخر من المثقفين العرب أن الوقت ليس مناسبا لمطالبة صدام حسين بـالاستقالة، وإن ذلك يمكن أن يعد موافقة ضمنية على أن الديمقراطيـة هـي الغاية التي يسعى لها الأمريكان من توجيه الضربة، وليسـت البترول، وليست حماية إسرائيل وتمكينها من تحقيق أهدافها التوسعيـة، ولهـذا اكتفـى هـذا الفريق الأخـير برفض الحـرب، وفضح السياسـة الأمريكيـة، والتنديـد بهـا، والدعـوة لمقاومتهـا مهما كان الثمـن، أقول مهما اختلفت مواقـف المثقفين العرب إزاء الأزمة الراهنة فوجودهم ثانوي وتأثيرهم محدود، لأن كثيرا من الذين يرفعون اليوم أصواتهـم في وجه صـدام حسين المحاصر لم يرفعوها في وجه صدام حسـين الطليـق، ولم يرفعوهـا في وجه آخريـن لا يقلون عنـه طغيانا واستبدادا.

ولأن الآخريـن الذين يرون أن الوقـت الآن ليس هو الوقت المناسب للـكلام عن الاستبداد العربـي، وإنما هو وقت الوقـوف صفا واحدا في وجـه العـدوان الأمريكي هـؤلاء أيضـا منطقهم ضعيـف، لأن كثيرين منهـم لم يرفعـوا أصواتهم ضـد الاستبـداد العربي عندمـا كان الوقت مناسبا لذلك، ولأن مقاومة العدوان الخارجي لا تتعارض مع مقاومة الاستبـداد، بـل إن مقاومة العـدوان لا يمكن أن تكـون إلا مبادرة حرة

www.alkottob.com

ونشاطا ديمقراطيا ينخرط فيه الجميع. لكني مع هذا لا أستهين بالمثقفين العرب، ولا أسعى للنيل منهم، كما يحلو للبعض أن يفعل، لأني أعرف جيدا ماذا صنع المثقفون العرب لبلادهم، وماذا قدموا للحرية والتقدم من تضحيات، وماذا قربوا لهما من قرابين. فإذا كانت التهمة مع ذلك تصح فيهم، فهي تصح في غيرهم.

وهذه هي المسألة التي يجب أن ننظر فيها بموضوعية، لا لننصف المثقفين، بل لنعالج أنفسنا جميعا من الأنانية، والسلبية، والتقصير في أداء ما يجب أن نؤديه كمواطنين أحرار.

www.alkottob.com

مغول الداخل.. ومغول الخارج!

أعـرف أن التتار الجـدد يعملون الآن أنيابهـم وخناجرهم في جسد العـراق الدامـي، ويتداعون إليه، ويتكاكأون عليه مـن جنوبه وشماله، ويضربونـه بالأسلحـة التي زعموا أنـه يملكها، وأنهم جـاءوا ليحولوا بينه وبين أن يدمر بها بلدا، أو يهدد بها أحدا.

والتتـار الجـدد الذين كانـوا سندا لـكل طاغية، ومددا لـكل انقلاب عسكـري يمنحهـم امتيـازا، أو يعطيهم قاعـدة، أو يدخل معهم في حلف يزعمـون اليوم أنهم يدمـرون بغداد والبصرة والموصـل، ويمزقون ما سطـره الخليل بن أحمد في العروض، وسيبويـه في النحو، وأبو حنيفة النعمان في الفقه، وإبراهيم النظام في علم الكلام، وبشار بن برد، وأبو العتاهية، وأبو نواس، وأبو تمام، وابن الرومي، والرصافي، والجواهري، ونـازك، والسياب، والبياتي في الشعر، وشاكر خصباك، وفؤاد التكرلي في الرواية، وماغني القبانجي، وناظم الغزالي، ويوسف عمر، وما صور جـواد سليم والعـزاوي. التتار الجدد يزعمون أنهـم يهدمون الحضارة، ويمحون التاريخ ليبنوا من الأنقاض المتطايرة، والصفحات المتناثرة،

www.alkottob.com

والصور المحترقة، والذكريات الغارقة في الدموع صرح الديمقراطية!

والتتار الجدد الذين آووا زعماء الإرهاب، واستضافوهم وزودوهم بالأسماء المستعارة، والأموال النجسة، وجوازات السفر المزيفة، واستخدموهم في صراعهم مع أي قوة تناوئهم، أو نظام يعتبرونه معاديا لهم بأي وجه من الوجوه، يزعمون اليوم أنهم يمزقون العراق، ويفككونه، ويدمرون وحدته لأنه ضالع مع بن لادن، والظواهري، وعمر عبد الرحمن في أحداث سبتمبر الأسبق، أو يمكن أن يحالفهم، أو ينضم إليهم في أحداث جديدة مماثلة. ونحن نتابع هذه الحرب القذرة المنحطة، ولا نملك أن نوقفها، ولا نعرف حتى ماذا ينبغي علينا أن نصنع، ولا ندري في أي طريق نسير. لا نعرف كيف نواجه أعداءنا، ولا نعرف كيف نواجه أنفسنا؟!

الأمريكان منفردون بالعالم، أرضه، ومائه، وسمائه، ونجومه، وفضائه، فهم الذين يعرفون الخير والشر، ويرسمون الحدود الفاصلة بينهما، ويصنفون البلاد والعباد، فكل من يتبعهم خيّر، وكل من يعارضهم شرير!!

وهم لا يكتفون بالمخاصمة، بل يجعلون أنفسهم خصوما وقضاة وجلادين.. يوجهون التهمة، وينطقون بالحكم، وينفذون!

هل شهد العالم طغيانا أفدح وأنكى من هذا الطغيان؟.. إن تاريخه حافل بالإمبراطوريات المستبدة والطغاة المستبدين.. لكن إمبراطورية واحدة لم تنفرد بالعالم إلا في هذه المرحلة السوداء.

في العصور القديمة كان المصريون وكان البابليون والآشوريون. ثم كان اليونان في الغرب والفرس في الشرق. ثم كانت روما وبيزنطة، ثم كان العرب والصليبيون، ثم كان الأتراك والأسبان، ثم كانت فرنسا وإنجلترا، ثم كان المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي. ثم سقط العالم

www.alkottob.com

في أيدي الأمريكان!

والأمريكان ليسوا مسئولين بالطبع عن سقوط القوى الأخرى التي كان وجودها ضرورة حيوية لتحقيق التوازن وكبح الجماح، مع أن هذه القوى الأخرى لم تكن أقل طغيانا أو عدوانا، ولكن وجودها إلى جانب سواها كان يفرض على كل منها أن تقف عند حد، وألا تتجاوز كل الخطوط كما يفعل الأمريكيون الآن، وقد خلا لهم الجو بسقوط الاتحاد السوفيتي، وانقسام الاتحاد الأوروبي، والانتظار الطويل الذي فرضه الصينيون علي أنفسهم حتى يستكملوا قوتهم التي لا يريدون أن يدخلوها في مغامرة يعرفون أن نهايتها لن تكون في مصلحتهم الآن، فحسبهم أن يأسروا طائرات الأمريكيين، ويرغموهم على الابتعاد عن كوريا الشمالية في هذه المرحلة، وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث. والعالم كله يعرف ما نعرفه، ويشهد ما نشهده، والدليل هو هذه المظاهرات التي تجتاح مدنه وعواصمه في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب.

لكن الأمريكيين الذين كانوا يقفون عند حدهم لأنهم يخشون ردود فعل القوى الأخرى حين كانت هذه القوى لا تزال موجودة، لا يقفون اليوم عند حدهم، لأنهم لا يعبأون بالرأي العام العالمي، ولا يعبأون بالشرعية الدولية، ولا بالأمم المتحدة، ولا بمجلس الأمن، ولا بالشعراء، ولا بالكتاب، ولا بالموسيقيين، ولا بالممثلين الذين ينددون بالحرب ويطالبون بالتزام الطرق السلمية في حل المشكلات وإنهاء الصراعات.

ومع أن الأمريكيين على أعلى درجة من القوة والقدرة والمنعة والتمكن توفر لهم الأمن والطمأنينة، وتمكنهم من النظر في كل مسألة تعرض لهم بفطنة وحكمة، فهم يتصرفون بطيش وحمق وهوج وضيق

www.alkottob.com

صـدر ونفـاد صبر، فلا يحترمون مبـدأ، ولا يبـالون بنتيجة، وهذا دليل جديد بعد ألف دليل على أن السلطة مفسدة، وأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة. لهذا قامت الديمقراطية الحديثة على تعدد السلطات واستقلالها، بحيـث يكـون التشريع سلطـة، والحكم سلطـة، والقضـاء سلطة، وكلها نابعة من الأمة التي هي مصدر السلطات.

وكمـا ينبغي لهذا المبـدأ أن يحترم في كل مجتمع قومي، ينبغي أن يحترم كذلك في المجتمع الدولي.

لقد سقطت القوة الأخرى التي كانت تقتسم العالم مع الأمريكيين، لكن الشرائع الدولية لم تسقط، والمنظمات الدولية لم تختف من الوجود. وكان على الولايات المتحدة أن تلتزم هذه الشرائع، وترجع إلى هذه المنظمات، لكنهـا لم ترجـع ولم تلتـزم، فكلام الأمريكيـين إذن عـن الديمقراطية، وحقـوق الإنسـان، وحكـم القانـون، كذب في كـذب، وهـراء في هراء.. وأنـا أصـدق تلـك القصة التـي نشرتها بعض الصحـف الفرنسية عن الدوافـع الشخصية التي أملت على الرئيس الأمريكي الحالي أن يضرب العـراق مهما تكن معارضـة العالم له، ومهما تكن حجته واهية أو غير كافيـة. والقصة تقـول إن المخابرات العراقية كانت قـد دبرت مؤامرة لقتـل الرئيس الأب بوش في الكويـت سنـة ١٩٩٣، غـير أن المؤامـرة العراقيـة فشلـت، ونجا بوش الأب، لكن بوش الابن لم ينس. وظل يفكر في الانتقام من صدام حسين قائلا: لقد حاول أن يقتل باباي!..

وهـا قد سنحت الفرصة! أريد أن أقول إن السيد الأمريكي، كما سماه سرجـون بولص في قصيدته، ليس أفضل من السيد العراقي. ليس أكثر منـه ديمقراطية، ولا أقل منه طغيانا ووحشيـة. كل من هذين السيدين هـو الموت الـذي سمم آبـار العراق، وافترس رجاله ونسـاءه وأطفاله وحاضره ومستقبله. وسوف نكون مجرد هتافين في مظاهرة غوغائية

www.alkottob.com

إذا لم نـدرك أن الطغيـان واحـد، وأن ما جره صـدام حسين على بلاده منـذ ظهر في حياتهـا السياسية، ليس أقل مما يفعلـه بها جورج بوش الابـن الآن. بل إن الحـرب الحالية هي الشوط الأخـير في سباق الموت الذي بدأه صـدام حسين بالحرب التي أعلنها علي خصومه السياسيين في داخـل العراق، سواء في الأحزاب المنافسـة أو في حزب البعث الذي انتمى إليـه. وبعد أن قضى علي خصومه قتلا ونفيا واعتقالا واغتيالا فتـح جبهة جديدة مـع الأكـراد في الشمال. وبعد أن جـرب في الأكراد أسلحتـه الكيميائيـة زحـف علـي إيـران ليدخـل مع الفرس في حرب الأعـوام العشرة التي لقى فيها مئات الآلاف من الإيرانيين والعراقيين حتفهـم. ثم لما رأى أن قادسيته انتهـت بلا نصر ولا غنيمة، وثب على الكويـت ليعوضـ ببترولها ما خسـره في إيران، فكانـت بداية النهاية التي نتابع أحداثها الآن، ولا ندري ماذا نصنع في مواجهتها.

إننـا ندين هذه الحرب القذرة، وننند بمـن أشعلوها، لكننا لا نعرف بعـد ذلك ما يجب علينـا أن نفعل، لأننا والضمير يعود هنا على العرب جميعـا، وعلـى المثقفين منهم بوجه خاص، لم نقـم دائما بواجبنا في مواجهـة الأحداث والتطورات التي تؤثر في حياتنـا وترسم مصائرنا، حتى نفهمها فهما موضوعيا، ونواجهها بحزم وفاعلية.

وأنـا لا ألـح علـى مسئوليـة المثقفـين إنـكارا لدورهـم، أو مداهنة لغيرهـم مـن أصحـاب السلطـان الذيـن يتحملـون القسـط الأكـبر من المسئوليـة، وإنمـا ألح هذا الإلحـاح لأني أعـرف أن المثقفين هم الركن الركين للديمقراطية، وأن ديمقراطية بلا عقل ليست إلا غوغائية تتحول لا محالة إلى طغيان.

ولقـد عرفنا الديمقراطيـة في مصر وعرفنا الـدور الأول الذي لعبه المثقفون فيهـا. ولينظر منا القادرون على النظر في سيرة الطهطاوي،

www.alkottob.com

ويعقـوب صنوع، ومحمد عبده، وعبـد الله النديم، وطه حسين، والعقـاد، وعلـي عبد الـرازق، وسلامـة موسى، ومحمـد مندور، ولويـس عوض، وعشرات ومئات آخرين من المثقفين المصريين والعرب الآخرين الذين دفعوا أثمانا غالية لرأي رأوه، أو كلمة جهروا بها، أو موقف وقفوه.

لقـد غصـت السجـون والمعتقـلات في معظـم البـلاد العربيـة، أو فيهـا كلهـا بالمثقفين، وضاقـت المنافي بهـم طوال القـرن العشرين، فمـن الظلـم البالـغ أن يطلـق البعض لسانـه فيهـم، وأن يعمـم التهمـة عليهـم. وسـوف أنهـي هـذه المقالـة بمثل واحـد من العـراق. لقـد حول صـدام حسين حيـاة العراقيـين إلى جحيم لم ينـج منه أحد، خاصـة المثقفـين الذين قتـل منهم من قتل، وسجن مـن سجن، وفضل آلاف منهـم الحياة في المنفى على الحياة في الوطن، ومن هؤلاء الذين نفوا أنفسهم فؤاد التكرلي، وهو رجل قانون وروائي مقروء، قصد باريس أول الأمر، ثم استقر في تونس طوال الأعوام العشرة الماضية، حتى قرر المغـول الجـدد أن يجتاحوا العراق فقـرر فؤاد التكـرلي أن يسبقهم إلى بـلاده حتى يتحمل مع العراقيين ما سـوف يتحملون، وحتى لا يتهمه أحـد بأنه آثر السلامة وترك شعبه بين المغولين، مغول الداخل، ومغول الخارج!

www.alkottob.com

نشر هذا الكتاب منجَّماً في جريدة الأهرام في الفترة من
ديسمبر ٢٠٠٢ إلى مايو ٢٠٠٣

www.alkottob.com

أحمد عبد المعطي حجازي

- رائد من رواد حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر، ووريث حركة الاستنارة المصرية.
- من مواليد ١٩٣٥.
- تلقى دراساته في مصر (مدرسة المعلمين بشبين الكوم)، وفرنسا (جامعة باريس III "السوربون الجديدة").
- اشتغل بالصحافة في مصر (دار روزاليوسف)، والتدريس في فرنسا (جامعة باريس III "السوربون الجديدة")
- تعرّض للقمع كأمثاله من المثقفين المصريين بسبب حرصه على استقلال رأيه وحرية تفكيره.
- عضو دائم في المجلس الأعلى للثقافة، ومقرر لجنة الشعر بالمجلس.
- كاتب متفرغ في صحيفة الأهرام.

www.alkottob.com